مَفْهُومُ العِبَادَةِ

جَمْعٌ وَتَرْتِيبٌ

مِنْ خُطَبِ وَمُحَاضَرَاتِ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ

أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ رَسْلَان

حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

الْغَايَةُ مِنْ خَلْقِ الْخَلْقِ: تَوْحِيدُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ

فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ عَلَىٰ الْعِبَادِ مَعْرِفَةُ الْأَمْرِ الَّذِي خَلَقَهُمُ اللهُ لَهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِهِ، وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ إِلَيْهِمْ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ عَلَيْهِمْ، وَلِأَجْلِهِ خُلِقَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَبِهِ حَقَّتِ الْحَاقَّةُ وَوَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَفِي شَأْنِهِ تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ وَتَتَطَايَرُ الصُّحُفُ، وَفِيهِ تَكُونُ الشَّقَاوَةُ وَالسَّعَادَةُ، وَعَلَىٰ حَسَبِهِ تُقَسَّمُ الْأَنْوَارُ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فَأَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْرِفُوا الْأَمْرَ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَهُمُ اللهُ -تَعَالَىٰ-، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِهِ، وَالْمِيثَاقُ هُوَ مَا أَخَذَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ بَنِي آدَمَ عِنْدَمَا كَانُوا فِي ظَهْرِ أَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟**

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٣٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٠٥).

قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ.

فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَلَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ». (*).

إِنَّ الْمَقْصِدَ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْعِبَادَةُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. (*/٢).

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨- ٣٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَفِي غَيْرِهَا الْأَمْرَ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَبَيَّنَهُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَلِيًّا وَاضِحًا لَا يَشْتَبِهُ عَلَىٰ أَحَدٍ وَلَا يَلْتَبِسُ عَلَىٰ قَاصِدِ حَقٍّ وَسَالِكِ سَبِيلِ صَوَابٍ. (*/٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ ٢٠٠ سُؤَالٍ وَجَوَابٍ فِي الْعَقِيدَةِ» - الِاثْنَيْنِ ٢٨ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٢هـ | ٣-١-٢٠١١م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَىٰ: «الْعِبَادَةُ.. مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتُهَا وَأَرْكَانُهَا وَشُرُوطُ صِحَّتِهَا» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَرْبِعَاءُ ٣ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٨هـ | ٢٦-٧-٢٠١٧م.

(*/ ٣) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ ٢٠٠ سُؤَالٍ وَجَوَابٍ فِي الْعَقِيدَةِ» - الِاثْنَيْنِ ٢٨ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٢هـ | ٣-١-٢٠١١م.

فَإِذَا كَانَ هَذَا الْمَقْصِدُ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَقَدْ تَوَجَّبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ هَذِهِ الْعِبَادَةَ مَا حَقِيقَتُهَا؟

وَمَا الْأُمُورُ الَّتِي تَعَبَّدَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَا؟

وَمَا الَّذِي يُشْتَرَطُ لِقَبُولِ تِلْكَ الْعِبَادَةِ عِنْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؟

وَمَا النَّوَاقِضُ الَّتِي تَنْقُضُ الْعِبَادَةَ الَّتِي إِذَا مَا تَقَرَّبْنَا إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَا، وَوَقَعَ لَهَا أَحَدُ تِلْكَ النَّوَاقِضِ لَمْ تَكُنْ عِبَادَةً فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ؟ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيلِ؛ فَقَدْ تَوَجَّبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَأَنْ نَخُصَّهُ لِنَعْرِفَهُ بِمَزِيدِ بَحْثٍ وَنَظَرٍ.

❊❊❊

مَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي اللُّغَةِ وَالشَّرْعِ

«**الْعِبَادَةُ فِي اللُّغَةِ**: مَصْدَرُ عَبَدَ يَعْبُدُ عِبَادَةً، أَيْ: أَطَاعَ، وَهَذَا الْمَصْدَرُ مَأْخُوذٌ مِنْ مَادَّة (ع. ب. د) الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ مَعْنَيَيْنِ:

الْأَوَّلُ: لِينٌ وَذُلٌّ.

وَالْآخَرُ: شِدَّةٌ وَغِلَظٌ»(١).

وَمِنَ الْأَصْلِ الْأَوَّلِ: أُخِذَ الْعَبْدُ، وَهُوَ الْمَمْلُوكُ، وَالْجَمَاعَةُ: الْعَبِيدُ، وَثَلَاثَةُ أَعْبُدٍ فِي جَمْعِ الْقِلَّةِ، وَهُمُ الْعِبَادُ فِي جَمْعِ الْكَثْرَةِ.

قَالَ الْخَلِيلُ(٢): «إِلَّا إِنَّهُمُ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ تَفْرِقَةٍ مَا بَيْنَ عِبَادِ اللهِ وَالْعَبِيدِ الْمَمْلُوكِينَ، يُقَالُ: هَذَا عَبْدٌ بَيِّنُ الْعُبُودَةِ، وَلَمْ نَسْمَعْهُمْ يَشْتَقُّونَ مِنْهُ فِعْلًا، وَلَوِ اشْتُقَّ لَقِيلَ: عَبُدَ أَيْ: صَارَ عَبْدًا وَأَقَرَّ بِالْعُبُودَةِ؛ وَلَكِنَّهُ أُمِيتَ الْفِعْلُ فَلَمْ يُسْتَعْمَلْ.

قَالَ الْخَلِيلُ: وَأَمَّا عَبَدَ يَعْبُدُ عِبَادَةً فَلَا يُقَالُ إِلَّا لِمَنْ يَعْبُدُ اللهَ -تَعَالَىٰ-، يُقَالُ مِنْهُ: عَبَدَ يَعْبُدُ عِبَادَةً، وَعُبُودَةً وَعُبُودِيَّةً وَمَعْبَدًا، وَتَعَبَّدَ يَتَعَبَّدُ تَعَبُّدًا.

---

(١) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» لِابْنِ فَارِسٍ (٤/ ٢٠٦)، وَ«لِسَانُ الْعَرَبِ» (٣/ ٢٧٥).

(٢) «**الْعَيْنُ**» (٢/ ٤٨).

فَالْمُتَعَبَّدُ: الْمُنْفَرِدُ بِالْعِبَادَةِ، وَيُقَالُ: اسْتَعْبَدْتُ فُلَانًا: اتَّخَذْتُهُ عَبْدًا.

وَيُقَالُ: تَعَبَّدَ فُلَانٌ فُلَانًا.. إِذَا صَيَّرَهُ كَالْعَبْدِ لَهُ وَإِنْ كَانَ حُرًّا.

وَيُقَالُ: أَعْبَدَ فُلَانٌ فُلَانًا أَيْ: جَعَلَهُ عَبْدًا.

وَيُقَالُ لِلْمُشْرِكِينَ: عَبَدَةُ الطَّاغُوتِ وَالْأَوْثَانِ، وَلِلْمُسْلِمِينَ: عُبَّادٌ يَعْبُدُونَ اللهَ.

وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ فِي جَمْعِ عَابِدٍ: عَبَدٌ، وَتَأْنِيثُ الْعَبْدِ: عَبْدَةٌ، وَالْعِبِدَّاءُ: جَمَاعَةُ الْعَبِيدِ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْعُبُودِيَّةِ.

وَمِنَ الْبَابِ: الْبَعِيرُ الْمُعَبَّدُ، وَهُوَ الْمَهْنُوءُ بِالْقَطْرَانِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُذِلُّهُ وَيَخْفِضُ مِنْهُ.

وَمِنْهُ -أَيْضًا-: الطَّرِيقُ الْمُعَبَّدُ، وَهُوَ الْمَسْلُوكُ الْمُذَلَّلُ(١).

قَالَ الرَّاغِبُ(٢): «الْعُبُودِيَّةُ: إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ، وَالْعِبَادَةُ أَبْلَغُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا غَايَةُ التَّذَلُّلِ، وَلَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا مَنْ لَهُ غَايَةُ الْإِفْضَالِ، وَهُوَ اللهُ -تَعَالَىٰ-.

وَجَمْعُ الْعَبْدِ الَّذِي هُوَ مُسْتَرَقٌّ: عَبِيدٌ، وَقِيلَ: عِبِدَّاءُ.

وَجَمْعُ الْعَبْدِ الَّذِي هُوَ الْعَابِدُ: عِبَادٌ.

جَمْعُ الْعَبْدِ الَّذِي هُوَ مُسْتَرَقٌّ -أَيْ: فِي الرِّقِّ- عَبِيدٌ، وَجَمْعُ الْعَبْدِ الَّذِي هُوَ الْعَابِدُ: عِبَادٌ.

---

(١) «**مَقَايِيسُ اللُّغَةِ**»: (٤/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) «**الْمُفْرَدَاتُ**»: (ص٥٤٢).

فَالْعَبِيدُ إِذَا أُضِيفَ إِلَىٰ اللهِ أَعَمُّ مِنَ الْعِبَادِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، فَنَبَّهَ أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ مَنْ يَخْتَصُّ بِعِبَادَتِهِ؛ وَلَا مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ كَعَبْدِ شَمْسٍ، وَعَبْدِ اللَّاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ».

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ(١): «الْعَبْدُ خِلَافُ الْحُرِّ، وَالْجَمْعُ عَبِيدٌ وَأَعْبُدُ وَعِبَادٌ وَعُبْدَانٌ وَعِبْدَانٌ وَعِبِدَّانٌ وَعِبِدًّا يُمَدُّ وَيُقْصَرُ.

وَأَصْلُ الْعُبُودِيَّةِ: الْخُضُوعُ وَالذُّلُّ، وَالتَّعْبِيدُ: الِاسْتِعْبَادُ، وَهُوَ أَنْ يَتَّخِذَهُ عَبْدًا، وَكَذَلِكَ الِاعْتِبَادُ، وَالْإِعْبَادُ مِثْلُهُ، وَكَذَا التَّعَبُّدُ، وَالْعِبَادَةُ: الطَّاعَةُ، وَالتَّعَبُّدُ: التَّنَسُّكُ».

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ(٢): «الْعَبْدُ: الْإِنْسَانُ؛ حُرًّا كَانَ أَوْ رَقِيقًا، يُذْهَبُ بِذَلِكَ إِلَىٰ أَنَّهُ مَرْبُوبٌ لِبَارِيهِ ﷻ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ خِلَافُ الْحُرِّ.

وَأَصْلُ الْعُبُودِيَّةِ: الذُّلُّ وَالْخُضُوعُ، وَيُقَالُ: تَعَبَّدَ اللهُ الْعَبْدَ بِالطَّاعَةِ، أَيِ: اسْتَعْبَدَهُ،

أَمَّا تَعَبَّدْتُ فُلَانًا فَمَعْنَاهُ: اتَّخَذْتُهُ عَبْدًا، مِثْلَ عَبَّدْتُهُ سَوَاءً.

وَكُلُّ مَنْ دَانَ لِمَلِكٍ فَهُوَ عَابِدٌ لَهُ، وَالْمُعَبَّدُ: الْمُكَرَّمُ الْمُعَظَّمُ؛ كَأَنَّهُ يُعْبَدُ».

هَذَا كُلُّهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ.

---

(١) انظُرْ: «**الصِّحَاحُ**» (٢/ ٥٠٢-٥٠٣).

(٢) انظُرْ: «**لِسَانَ الْعَرَبِ**»: (٣/ ٢٧٠-٢٧١)، مَادَّةُ: (عبد).

«**وَأَمَّا فِي الِاصْطِلَاحِ فَالْعِبَادَةُ**: «اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»[١].

وَقِيلَ: **الْعِبَادَةُ**: اسْمٌ يَجْمَعُ كَمَالَ الْحُبِّ للهِ وَنِهَايَتَهُ، وَكَمَالَ الذُّلِّ للهِ وَنِهَايَتَهُ، فَهِيَ كَمَالُ حُبٍّ فِي كَمَالِ ذُلٍّ.

وَقِيلَ: عِبَادَةُ اللهِ: طَاعَتُهُ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْذُورِ»[٢].

وَقَالَ الْمُنَاوِيُّ[٣]: «الْعِبَادَةُ: فِعْلُ الْمُكَلَّفِ عَلَىٰ خِلَافِ هَوَىٰ نَفْسِهِ تَعْظِيمًا لِرَبِّهِ.

وَقِيلَ: هِيَ الْأَفْعَالُ الْوَاقِعَةُ عَلَىٰ نِهَايَةِ مَا يُمْكِنُ مِنَ التَّذَلُّلِ وَالْخُضُوعِ الْمُتَجَاوِزِ لِتَذَلُّلِ بَعْضِ الْعِبَادِ لِبَعْضٍ.

وَلِذَلِكَ اخْتُصَّتْ بِالرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، وَهِيَ أَخَصُّ -أَيِ: الْعِبَادَةُ- مِنَ الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي تَعْنِي مُطْلَقَ التَّذَلُّلِ» -كَمَا مَرَّ فِي إِضَافَةِ الْعَبِيدِ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَنْ كَانَ عَابِدًا للهِ، وَمَنْ كَانَ عَابِدًا لِسِوَاهُ.

وَأَمَّا الْعِبَادُ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ إِلَّا عِبَادًا للهِ جَلَّ وَعَلَا وَحْدَهُ.

فَكَذَلِكَ الْعُبُودِيَّةُ تَعْنِي مُطْلَقَ التَّذَلُّلِ، فَهِيَ أَعَمُّ مِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) هَذَا تَعْرِيفُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ فِي «**الْعُبُودِيَّةِ**» ضِمْنَ «**مَجْمُوعِ الْفَتَاوَىٰ**»: (١٠/ ١٤٩).

(٢) «الْعُبُودِيَّةُ» لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ (٥)، وَ«تَيْسِيرُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» (٤٧)، وَ«قُرَّةُ عُيُونِ الْمُوَحِّدِينَ» (١٥)، وَ«فَتْحُ الْمَجِيدِ» (١٤).

(٣) «**التَّوْقِيفُ**»: (ص٢٣٥).

الْعُبُودِيَّةُ عَرَّفَهَا الْجُرْجَانِيُّ بِقَوْلِهِ(١): «هِيَ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ، وَحِفْظُ الْحُدُودِ، وَالرِّضَا بِالْمَوْجُودِ، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ الْمَفْقُودِ».

*** الْفَرْقُ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ:**

وَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ؛ «فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْعِبَادَةَ غَايَةُ الْخُضُوعِ، وَلَا تُسْتَحَقُّ إِلَّا بِغَايَةِ الْإِنْعَامِ؛ وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَلَا تَكُونُ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْمَعْبُودِ، وَأَمَّا الطَّاعَةُ فَهِيَ الْفِعْلُ الْوَاقِعُ عَلَىٰ حَسَبِ إِرَادَةِ الْمُرِيدِ مَتَىٰ كَانَ الْمُرِيدُ أَعْلَىٰ رُتْبَةً مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَتَكُونُ لِلْخَالِقِ -أَيِ: الطَّاعَةُ-، وَتَكُونُ لِلْمَخْلُوقِ.

كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ لَا يَصْحَبُهَا قَصْدُ الِاتِّبَاعِ؛ كَالْإِنْسَانِ يَكُونُ مُطِيعًا لِلشَّيْطَانِ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ أَنْ يُطِيعَهُ، وَلَكِنَّهُ اتَّبَعَ دُعَاءَهُ وَإِرَادَتَهُ»(٢).

*** الْعِبَادَةُ وَأَنْوَاعِ الْعَبْدِ:**

«**وَالْعِبَادَةُ ضَرْبَانِ:**

- **عِبَادَةٌ بِالتَّسْخِيرِ**، وَهِيَ لِلْإِنْسَانِ، وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالنَّبَاتَاتِ؛ فَهِيَ عَامَّةٌ لِلْجَمِيعِ.

- **وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّانِي: فَعِبَادَةٌ بِالِاخْتِيَارِ**، وَهِيَ لِذَوِي النُّطْقِ، وَهِيَ الْمَأْمُورُ بِهَا فِي قَوْلِهِ -سُبْحَانَهُ-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

---

(١) «**التَّعْرِيفَاتُ**»: (ص١٤٦).

(٢) بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ مِنَ: «الْفُرُوقِ فِي اللُّغَةِ» لِأَبِي هِلَالٍ الْعَسْكَرِيِّ (١٨٢).

أَمَّا الْعَبْدُ فَإِنَّهُ يُقَالُ عَلَىٰ أَضْرُبٍ:

الْأَوَّلُ: عَبْدٌ بِحُكْمِ الشَّرْعِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَصِحُّ بَيْعُهُ وَابْتِيَاعُهُ.

الثَّانِي: عَبْدٌ بِالْإِيجَادِ، وَذَلِكَ لَيْسَ إِلَّا للهِ، وَإِيَّاهُ قُصِدَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

الثَّالِثُ: عَبْدٌ بِالْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ، وَالنَّاسُ فِي هَذَا ضَرْبَانِ:

- **عَبْدٌ مُخْلِصٌ للهِ.**

- **وَعَبْدٌ لِلدُّنْيَا وَأَعْرَاضِهَا.**

عَبْدٌ مُخْلِصٌ للهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

وَعَبْدٌ لِلدُّنْيَا وَأَغْرَاضِهَا، وَهُوَ الْمُعْتَكِفُ عَلَىٰ خِدْمَتِهَا وَمُرَاعَاتِهَا، وَإِيَّاهُ قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ**»(١). الْحَدِيثُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ»(٢).

فَالْعِبَادَةُ عِبَادَةٌ بِالتَّسْخِيرِ، وَعِبَادَةٌ بِالِاخْتِيَارِ.

وَالْعَبْدُ عَلَىٰ أَنْوَاعٍ:

عَبْدٌ بِحُكْمِ الشَّرْعِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٨٨٧).

(٢) «مُفْرَدَاتُ الرَّاغِبِ» (٣١٨).

وَعَبْدٌ بِالْإِيجَادِ.

وَعَبْدٌ بِالْعِبَادَةِ.

وَالنَّاسُ فِي الْعِبَادَةِ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ:

عَبْدٌ مُخْلِصٌ للهِ.

وَعَبْدٌ لِلدُّنْيَا وَأَعْرَاضِهَا.

*** مِنْ مَعَانِي كَلِمَةِ «الْعِبَادَةِ» فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:**

«**وَقَدْ وَرَدَتْ كَلِمَةُ (الْعِبَادَةِ) فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَىٰ مَعَانٍ، فَذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْعِبَادَةَ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:**

أَحَدِهِمَا: التَّوْحِيدُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] أَيْ: وَحِّدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

فَالْعِبَادَةُ هَاهُنَا: التَّوْحِيدُ.

الثَّانِي: الطَّاعَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠].

وَفِي سَبَأٍ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]»(١).

فَمِنْ مَعَانِي كَلِمَةِ (الْعِبَادَةِ) فِي الْكِتَابِ الْمَجِيدِ: التَّوْحِيدُ، وَالطَّاعَةُ.

---

(١) «نُزْهَةُ الْأَعْيُنِ النَّوَاظِرِ» (٤٣١-٤٣٢).

*** حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ:**

وَأَمَّا حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ؛ فَأَصْلُ الْعِبَادَةِ: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، وَسُمِّيَتْ وَظَائِفُ الشَّرْعِ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ عِبَادَاتٍ؛ لِأَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَهَا وَيَفْعَلُونَهَا خَاضِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(١): «التَّحْقِيقُ بِمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «**إِنِّي عَبْدُكَ**»: الْتِزَامُ عُبُودِيَّتِهِ مِنَ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْإِنَابَةِ، وَامْتِثَالُ أَمْرِ سَيِّدِهِ، وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ، وَدَوَامُ الِافْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَاللُّجُوءُ إِلَيْهِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَعِيَاذُ الْعَبْدِ بِهِ وَلِيَاذُهُ بِهِ، وَأَلَّا يَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِغَيْرِهِ مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً.

وَفِيهِ -أَيْضًا-: أَنِّي عَبْدٌ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ؛ صَغِيرًا وَكَبِيرًا، حَيًّا وَمَيِّتًا، مُطِيعًا وَعَاصِيًا، مُعَافًىٰ وَمُبْتَلًىٰ، بِالرُّوحِ وَالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ.

وَفِيهِ -أَيْضًا-: أَنَّ مَالِي وَنَفْسِي مِلْكٌ لَكَ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ وَمَا يَمْلِكُهُ لِسَيِّدِهِ.

وَفِيهِ -أَيْضًا-: أَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي مَنَنْتَ عَلَيَّ بِكُلِّ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ، فَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ إِنْعَامِكَ عَلَىٰ عَبْدِكَ.

وَفِيهِ -أَيْضًا-: أَنِّي لَا أَتَصَرَّفُ فِيمَا خَوَّلْتَنِي مِنْ مَالِي وَنَفْسِي إِلَّا بِأَمْرِكَ كَمَا لَا يَتَصَرَّفُ الْعَبْدُ إِلَّا بِإِذْنِ سَيِّدِهِ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، فَإِنْ صَحَّ لَهُ شُهُودُ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ: إِنِّي عَبْدُكَ حَقِيقَةً.

---

(١) «الْفَوَائِدُ» (٣٤-٣٥).

ثُمَّ قَالَ: «**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ.. اللهم إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**»(١) أَيْ: أَنْتَ الْمُتَصَرِّفُ فِيَّ، تُصَرِّفُنِي كَيْفَ تَشَاءُ، لَسْتُ أَنَا الْمُتَصَرِّفَ فِي نَفْسِي، وَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِهِ تَصَرُّفٌ مِنْ نَفْسِهِ وَنَفْسُهُ بِيَدِ رَبِّهِ وَسَيِّدِهِ، وَنَاصِيَتُهُ بِيَدِهِ، وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ، وَمَوْتُهُ وَحَيَاتُهُ وَسَعَادَتُهُ وَشَقَاوَتُهُ وَعَافِيَتُهُ وَبَلَاؤُهُ كُلُّهُ إِلَيْهِ -سُبْحَانَهُ-؟!! لَيْسَ إِلَىٰ الْعَبْدِ مِنْهُ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ فِي قَبْضَةِ سَيِّدِهِ أَضْعَفُ مِنْ مَمْلُوكٍ ضَعِيفٍ حَقِيرٍ.

نَاصِيَتُهُ بِيَدِ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ مَالِكٍ لَهُ تَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ؛ بَلِ الْأَمْرُ فَوْقَ ذَلِكَ.

وَمَتَىٰ شَهِدَ الْعَبْدُ أَنَّ نَاصِيَتَهُ وَنَوَاصِيَ الْعِبَادِ كُلَّهَا بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ، يُصَرِّفُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ؛ لَمْ يَخَفْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجُهُمْ، وَلَمْ يُنْزِلْهُمْ مَنْزِلَةَ الْمَالِكِينَ، بَلْ مَنْزِلَةَ عَبِيدٍ مَقْهُورِينَ مَرْبُوبِينَ، الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ سِوَاهُمْ، وَالْمُدَبِّرُ لَهُمْ غَيْرُهُمْ.

فَمَنْ شَهِدَ نَفْسَهُ بِهَذَا الْمَشْهَدِ صَارَ فَقْرُهُ وَضَرُورَتُهُ إِلَىٰ رَبِّهِ -تَعَالَىٰ- وَصْفًا لَازِمًا لَهُ، وَمَتَىٰ شَهِدَ النَّاسَ كَذَلِكَ لَمْ يَفْتَقِرْ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يُعَلِّقْ أَمَلَهُ وَرَجَاءَهُ بِهِمْ؛ فَاسْتَقَامَ تَوْحِيدُهُ وَتَوَكُّلُهُ وَعُبُودِيَّتُهُ».

---

(١) أخرجه أحمد: (١/ ٣٩١، ٤٥٢، رقم ٣٧١٢، ٤٣١٨)، والبزار: (٥/ ٣٦٣، رقم ١٩٩٤)، وأبو يعلىٰ: (٩/ ١٩٨، رقم ٥٢٩٧)، وابن حبان: (٣/ ٢٥٣، رقم ٩٧٢)، والطبراني في «المعجم الكبير»: (١٠/ ١٦٩، رقم ١٠٣٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٩، رقم ١٨٧٧)، من حديث: ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والحديث صححه شيخ الإسلام، وابن القيم في «الصواعق» (٣/ ٩١٣) وغيره، والشيخ شاكر في تخريج «المسند» (رقم ٤٣١٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٩٩)، ومقبل، وغيرهم، وانظر: «علل الدارقطني» (٥/ رقم ٨١٩).

فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ كَمَا بَيَّنَهَا الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً-.

*** أَرْكَانُ الْعِبَادَةِ:**

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ فِي بَيَانِ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ[١]: «الْعِبَادَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: غَايَةُ الْحُبِّ وَالْخُضُوعِ، يَعْنِي: غَايَةُ الْحُبِّ وَغَايَةُ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ، فَمَنْ أَحْبَبْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ خَاضِعًا لَهُ لَمْ تَكُنْ عَبْدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلَا مَحَبَّةٍ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ حَتَّىٰ تَكُونَ مُحِبًّا خَاضِعًا.

وَمِنْ هَاهُنَا كَانَ الْمُنْكِرُونَ مَحَبَّةَ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ مُنْكِرِينَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَالْمُنْكِرُونَ لِكَوْنِهِ مَحْبُوبًا لَهُمْ -بَلْ هُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ، وَوَجْهُهُ الْأَعْلَىٰ نِهَايَةُ بُغْيَتِهِمْ- مُنْكِرُونَ لِكَوْنِهِ إِلَهًا؛ وَإِنْ أَقَرُّوا بِكَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ وَخَالِقًا لَهُمْ.

فَهَذَا الْإِقْرَارُ غَايَةُ تَوْحِيدِهِمْ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا بِهِ عَنِ الشِّرْكِ»»[٢].

فَأَرْكَانُ الْعِبَادَةِ كَمَا بَيَّنَهَا الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ رُكْنَانِ:

- غَايَةُ الْحُبِّ.
- وَغَايَةُ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٥- ٨٦).

(٢) «الموسوعة» (ص: ٢٧٤١-٢٧٤٤).

فَلَا بُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ أَوْ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، فَمَنْ أَحْبَبْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ خَاضِعًا لَهُ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلَا مَحَبَّةٍ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ حَتَّىٰ تَكُونَ مُحِبًّا خَاضِعًا.

غِيَابُ الْمَفَاهِيمِ الصَّحِيحَةِ لِلدَّلَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَخَبَّطُونَ فِي ظُلُمَاتٍ مِنَ الْجَهْلِ، وَيَخُوضُونَ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الضَّلَالَاتِ، مُعْتَقِدِينَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنَ الْأَمْرِ وَجَادَّةٍ مِنَ الطَّرِيقِ، فَيُدْخِلُونَ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَيُخْرِجُونَ مِنَ الدِّينِ مَا هُوَ وَاضِحُ الدَّلَالَةِ فِيهِ.

وَمَسْأَلَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ مِنْ أَظْهَرِ الْمَسَائِلِ فِي هَذَا الْبَابِ، رَغْمَ الدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَةِ الَّتِي لَا اشْتِبَاهَ فِيهَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ إِلَّاأَنَّ طَوَائِفَ مِنَ الْأُمَّةِ ضَلَّتْ فِي مَفْهُومِهَا، وَجَهِلَتْ مَعْنَاهَا، فَكَانَ الْوُلُوغُ فِي أَبْوَابٍ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْوَاعٍ مِنَ الِانْحِرَافَاتِ.. كَانَ هَذَا الْوُلُوغُ فِي الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ نَتِيجَةً لَازِمَةً لِذَلِكَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ؛ حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ أَنْوَاعٌ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ لَيْسَتْ مَحَلَّ سُكُوتٍ وَعَدَمِ إِنْكَارٍ فَحَسْبُ، بَلْ عُدَّتْ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُرَبِ الَّتِي يُرْجَىٰ بِهَا الثَّوَابُ وَالزُّلْفَىٰ عِنْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُعَلِّمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «فَإِنِّي تَدَبَّرْتُ الْخِلَافَ الْمُسْتَطِيرَ بَيْنَ الْأُمَّةِ فِي الْقُرُونِ الْمُتَأَخِّرَةِ فِي شَأْنِ الِاسْتِغَاثَةِ بِالصَّالِحِينَ الْمَوْتَىٰ، وَتَعْظِيمِ قُبُورِهِمْ وَمَشَاهِدِهِمْ، وَتَعْظِيمِ بَعْضِ الْمَشَايِخِ الْأَحْيَاءِ، وَزَعْمِ بَعْضِ الْأُمَّةِ

---

(١) «رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله وتحقيق معنىٰ التوحيد والشرك بالله» (ص: ٣-٤).

فِي كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ شِرْكٌ، وَبَعْضِهَا أَنَّهُ بِدْعَةٌ، وَبَعْضِهَا أَنَّهُ مِنَ الْحَقِّ، وَرَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ وَقَعُوا فِي تَعْظِيمِ الْكَوَاكِبِ وَالرُّوحَانِيِّينَ وَالْجِنِّ؛ رَأَيْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَطُولُ شَرْحُهُ، وَبَعْضُهُ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ التَّنْجِيمِ وَالتَّعْزِيمِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ مُسْلِمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يُقْدِمُ عَلَىٰ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ شِرْكٌ، وَلَا عَلَىٰ تَكْفِيرِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ كَافِرٍ؛ وَلَكِنَّهُ وَقَعَ الِاخْتِلَافُ فِي حَقِيقَةِ الشِّرْكِ، فَنَظَرْتُ فِي حَقِيقَةِ الشِّرْكِ فَإِذَا هُوَ بِالِاتِّفَاقِ: اتِّخَاذُ غَيْرِ اللهِ ﷻ إِلَهًا مِنْ دُونِهِ، أَوْ عِبَادَةُ غَيْرِ اللهِ ﷻ.

فَاتَّجَهَ النَّظَرُ إِلَىٰ مَعْنَىٰ الْإِلَهِ وَالْعِبَادَةِ فَإِذَا فِيهِ اشْتِبَاهٌ شَدِيدٌ، فَعَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ الِاشْتِبَاهَ هُوَ سَبَبُ الْخِلَافِ».

* أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْعِبَادَةِ:

فَلَا بُدَّ مِنْ تَحْرِيرِ هَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَعْنَاهَا؛ وَإِلَّا وَقَعَ التَّخَبُّطُ وَالْحُيُودُ عَنِ النَّهْجِ الْمُسْتَقِيمِ.

الْعِبَادَةُ -كَمَا مَرَّ- أَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ يَرْجِعُ إِلَىٰ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ؛ إِلَّا أَنَّهُ أَخَصُّ مِنْهُ؛ إِذْ هُوَ يَبْلُغُ الْغَايَةَ فِي ذَلِكَ، فَلَيْسَ كُلُّ ذُلٍّ أَوْ خُضُوعٍ يَكُونُ عِبَادَةً؛ إِلَّا أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا بُدَّ فِيهَا مِنَ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ.

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ وَغَيْرِهِمْ؛ فَمَرْجِعُ مَا يَذْكُرُونَهُ هُوَ هَذَا الْمَعْنَىٰ: إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ، وَالْعِبَادَةُ أَبْلَغُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا غَايَةُ التَّذَلُّلِ، وَأَصْلُ الْعُبُودِيَّةِ: الْخُضُوعُ وَالتَّذَلُّلُ، وَمَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ فِي اللُّغَةِ: الطَّاعَةُ مَعَ الْخُضُوعِ، وَمِنْهُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ.. إِذَا كَانَ مُذَلَّلًا بِكَثْرَةِ الْوَطْءِ.

وَفُلَانٌ عَابِدٌ، أَيْ: خَاضِعٌ لِرَبِّهِ، مُسْتَسْلِمٌ مُنْقَادٌ لِأَمْرِهِ.

وَطَرِيقٌ وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ، أَيْ: مُذَلَّلٌ، تَقُولُ: لَا تَجْعَلْنِي كَالْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ وَالْأَسِيرِ الْمُعَبَّدِ.

الْعِبَادَةُ: غَايَةُ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ، وَأَصْلُ الْعُبُودِيَّةِ: الْخُضُوعُ وَالذُّلُّ، وَالتَّعْبِيدُ: التَّذْلِيلُ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ.

فَإِذَا رَجَعْنَا إِلَىٰ اللُّغَةِ -كَمَا مَرَّ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ-؛ وَجَدْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَدُورُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، فَمَنْ فَسَّرَهُ بِمُطْلَقِ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ فَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أَصْلِ الْمَعْنَىٰ لَا تَمَامِهِ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ إِطْلَاقُ اسْمِ الْعُبُودِيَّةِ عَلَىٰ كُلِّ تَذَلُّلٍ وَخُضُوعٍ، بَلْ حَقِيقَتُهُ مَا كَانَ بَالِغًا فِي ذَلِكَ الْمُنْتَهَىٰ وَالْغَايَةَ.

وَمَنْ فَسَّرَهُ بِالطَّاعَةِ وَالِانْقِيَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهُوَ بِاللَّازِمِ الَّذِي لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَىٰ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ -فَضْلًا عَنْ غَايَةِ ذَلِكَ وَنِهَايَتِهِ- هُوَ الطَّاعَةُ وَالِانْقِيَادُ وَالِامْتِثَالُ.

فَهَذَا مَا يَدُورُ عَلَيْهِ الْمَعْنَىٰ لُغَةً.

وَجَاءَ فِي الشَّرْعِ إِطْلَاقُ الْعُبُودِيَّةِ عَلَىٰ التَّنَوُّعِ الْوَاقِعِ فِي الْعُرْفِ اللُّغَوِيِّ بِجَامِعِ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ بِحَسَبِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ النَّصِّ الشَّرْعِيِّ؛ فَقَدْ جَاءَ إِطْلَاقُهَا عَلَىٰ كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ مَرْبُوبٌ مَمْلُوكٌ للهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فَيَدْخُلُ فِي هَذَا إِبْلِيسُ -عَلَيْهِ لَعَائِنُ اللهِ-؛ فَإِنَّهُ عَبْدٌ للهِ بِالْمَعْنَىٰ الْعَامِّ؛ لِأَنَّهُ مَرْبُوبٌ مَمْلُوكٌ مَقْهُورٌ مُسَخَّرٌ، وَجَاءَ إِطْلَاقُهَا عَلَىٰ الْمَمْلُوكِ بِاعْتِبَارِ خُضُوعِهِ لِسَيِّدِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ [النحل: ٧٥].

وَسُمِّيَ الْحِرْصُ الشَّدِيدُ عَلَىٰ الدُّنْيَا بِاعْتِبَارِ الْخُضُوعِ لَهَا خُضُوعًا يَظْهَرُ فِي حَالِ الِانْشِغَالِ بِهَا عَنْ كُلِّ حَقٍّ.. سُمِّيَ عِبَادَةً لَهَا، كَمَا فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»(١): «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**».

إِلَّا إِنَّ أَصْلَ إِطْلَاقِ (**الْعِبَادَةِ**) فِي الشَّرْعِ مُنْصَرِفٌ إِلَىٰ الْحَقِّ الَّذِي اخْتُصَّ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ لِغَيْرِهِ؛ وَهُوَ كَمَالُ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالِانْقِيَادِ.

وَهَذَا الْمَعْنَىٰ هُوَ الَّذِي خَاطَبَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ أَقْوَامَهُمْ، فَفَهِمُوهُ مِنْ عِبَارَتِهِ الْأُولَىٰ دُونَ أَنْ يَكُونَ مُصْطَلَحًا جَدِيدًا تَخْفَىٰ عَلَيْهِمْ مَعَالِمُهُ.

فَالْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيُّ لِلْعِبَادَةِ مُوَافِقٌ فِي أَصْلِهِ لِلْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيِّ، وَيَكُونُ بَعْدَ الْمَعْنَىٰ مَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ شُرُوطٍ وَصُوَرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِهِ.

وَعَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيِّ جَاءَتْ تَعْرِيفَاتُ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ لِلْعِبَادَةِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ: «إِنَّهَا الْخُضُوعُ للهِ بِالطَّاعَةِ، وَالتَّذَلُّلُ لَهُ بِالِاسْتِكَانَةِ».

---

(١) تقدم تخريجه.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْعِبَادَةُ الْمَأْمُورُ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الذُّلِّ وَمَعْنَىٰ الْحُبِّ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ للهِ -تَعَالَىٰ- بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ -تَعَالَىٰ-».

وَهَذَا مَا قَالَهُ الْعَلَّامَةُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «النُّونِيَّةِ»:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّىٰ قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْعِبَادَةُ فِي اللُّغَةِ: مِنَ الذِّلَّةِ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ أَيْ: مُذَلَّلٌ، وَفِي الشَّرْعِ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ».

وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: «الْعِبَادَةُ هِيَ: أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ الْخُضُوعِ».

وَهَذِهِ التَّعَارِيفُ هِيَ بِاعْتِبَارِ الْوَصْفِ الْقَائِمِ بِالْعَبْدِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَقَدْ تُعَرَّفُ الْعِبَادَةُ بِاعْتِبَارٍ آخَرَ -أَيْ: بِاعْتِبَارِ مَا يُتَعَبَّدُ بِهِ-، فَالْعِبَادَةُ تُعَرَّفُ بِاعْتِبَارِ الْوَصْفِ الْقَائِمِ بِالْعَبْدِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا كَمَا فِي هَذِهِ التَّعَارِيفِ، وَقَدْ تُعَرَّفُ الْعِبَادَةُ بِاعْتِبَارِ مَا يُتَعَبَّدُ بِهِ.

وَلَعَلَّ أَشْمَلَ تَعْرِيفٍ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ مَا ذَكَرَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «الْعِبَادَةُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ».

فَتَعْرِيفُ الْعِبَادَةِ هَذَا -وَهُوَ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ- هُوَ بِاعْتِبَارِ مَا يُتَعَبَّدُ بِهِ للهِ -تَعَالَىٰ-، «اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ».

وَلَهُ تَعْرِيفٌ بِاعْتِبَارِ الْوَصْفِ الْقَائِمِ بِالْعَبْدِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَهُوَ قَوْلُهُ: «الْعِبَادَةُ الْمَأْمُورُ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الذُّلِّ وَمَعْنَىٰ الْحُبِّ».

فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ للهِ -تَعَالَىٰ- فِي غَايَةِ الْمَحَبَّةِ للهِ -تَعَالَىٰ-.

فَهَذَا تَعْرِيفُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلْعِبَادَةِ بِاعْتِبَارِ الْوَصْفِ الْقَائِمِ بِالْعَبْدِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَأَمَّا تَعْرِيفُهُ الْمَشْهُورُ، وَهُوَ أَنَّ «الْعِبَادَةَ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»؛ فَهَذَا تَعْرِيفٌ لِلْعِبَادَةِ بِاعْتِبَارِ مَا يُتَعَبَّدُ بِهِ للهِ -تَعَالَىٰ-.

قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ اخْتِلَافٌ فِي عِبَارَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ، وَهَذَا لَا يُعَدُّ تَضَارُبًا فِي فَهْمِ مَعْنَاهَا، وَإِنَّمَا هُوَ النَّظَرُ إِلَىٰ اعْتِبَارَاتٍ مُعَيَّنَةٍ فِي التَّعْرِيفِ، فَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ مَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ دُونَ إِضَافَةٍ إِلَىٰ أَحَدٍ؛ فَعِبَارَتُهُ أَشْمَلُ مِمَّنْ عَرَّفَهَا بِاعْتِبَارِهَا مُضَافَةً إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- مَقْبُولَةً عِنْدَهُ.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ حَالِ الْمُتَعَبِّدِ اخْتَلَفَتْ عِبَارَتُهُ عَمَّنْ نَظَرَ إِلَىٰ أَفْرَادِ الْمُتَعَبَّدِ بِهِ.

مِنْ أَجْلِ هَذَا وَلِيَكُونَ تَصَوُّرُ الْعِبَادَةِ فِي الْإِطْلَاقِ الشَّرْعِيِّ أَكْثَرَ وُضُوحًا لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّ عُبُودِيَّةَ الْخَلْقِ لِرَبِّهِمْ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ.

عُبُودِيَّةُ الْخَلْقِ للهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَىٰ قِسْمَيْنِ:

- **عُبُودِيَّةٍ عَامَّةٍ.**

- **وَعُبُودِيَّةٍ خَاصَّةٍ.**

فَالْعُبُودِيَّةُ الْعَامَّةُ: هِيَ عُبُودِيَّةُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكُلُّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- عَبِيدٌ لَهُ -سُبْحَانَهُ- بِاعْتِبَارِهِمْ مَرْبُوبِينَ لَهُ مَقْهُورِينَ لَهُ مُسَخَّرِينَ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ، لَا يَخْرُجُونَ عَنْ مُلْكِهِ وَتَدْبِيرِهِ.

هَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ عَامَّةٌ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَفِيهِمُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، فَكُلُّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ، لَا تَنْفَكُّ عَنْهُ فِي حَالٍ وَلَا حِينٍ.

الْعُبُودِيَّةُ الْعَامَّةُ هِيَ الْمُرَادَةُ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

---

(١) «**صحيح مسلم**»: ٤/ ٢١٩٧، رقم (٢٨٦٥)، من حديث: عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَأَمْثَالُهَا فِي الْعُبُودِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَهِيَ لَيْسَتْ مَحَلَّ تَفْرِيقٍ وَتَمْيِيزٍ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَلَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ، وَلَيْسَتْ هِيَ خِطَابَ الرُّسُلِ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فِي أَمْرِهِمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ؛ إِذْ هِيَ عُبُودِيَّةٌ قَصْرِيَّةٌ قَهْرِيَّةٌ لَا انْفِكَاكَ لَهُمْ عَنْهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ: «الْعَبْدُ يُرَادُ بِهِ: الْمُعَبَّدُ الَّذِي عَبَّدَهُ اللهُ فَذَلَّلَهُ وَدَبَّرَهُ وَصَرَّفَهُ، وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالْمَخْلُوقُونَ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللهِ؛ الْأَبْرَارُ مِنْهُمْ وَالْفُجَّارُ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْكُفَّارُ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ؛ إِذْ هُوَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، لَا يَخْرُجُونَ عَنْ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يَتَجَاوَزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ؛ فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ، وَمُحْيِيهِمْ وَمُمِيتُهُمْ، وَمُقَلِّبُ الْقُلُوبِ، وَمُصَرِّفُ أُمُورِهِمْ، لَا رَبَّ لَهُمْ غَيْرُهُ، وَلَا مَالِكَ لَهُمْ سِوَاهُ، وَلَا خَالِقَ لِكُلِّ شَيْءٍ وَمُدَبِّرُهُ وَمُسَخِّرُهُ إِلَّا هُوَ؛ سَوَاءٌ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ أَمْ أَنْكَرُوهُ، وَسَوَاءٌ عَلِمُوا ذَلِكَ أَمْ جَهِلُوهُ».

فَهَذِهِ هِيَ الْعُبُودِيَّةُ الْعَامَّةُ، يَدْخُلُ فِيهَا الْكُلُّ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، فَكُلُّهُمْ مَقْهُورُونَ مَرْبُوبُونَ مُسَخَّرُونَ.

أَمَّا الْعُبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ؛ فَمَوْصُوفٌ بِهَا مَنْ حَقَّقَ لَازِمَ تِلْكَ الْعُبُودِيَّةِ الْعَامَّةِ؛ بِأَنْ يَصْرِفَ كَمَالَ الْخُضُوعِ وَالْمَحَبَّةِ وَالِانْقِيَادِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ.

وَهَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ -يَعْنِي: الْعُبُودِيَّةَ الْخَاصَّةَ- هِيَ دَعْوَةُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَقْوَامِهِمْ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وَهِيَ فَارِقُ مَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ.

هَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ فِيهَا مِنَ الِاخْتِيَارِ عِنْدَ الْعَبْدِ مَا جَعَلَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- مَحَلَّ الِابْتِلَاءِ وَمَنَاطَ التَّكْلِيفِ، فَمَنْ حَقَّقَهَا فَهُوَ الْعَابِدُ للهِ حَقًّا، وَمَنْ لَمْ يُحَقِّقْهَا وَصَرَفَهَا لِغَيْرِ اللهِ -تَعَالَىٰ- فَلَيْسَ عَبْدًا للهِ -تَعَالَىٰ- بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، بَلْ هُوَ عَبْدٌ لِلشَّيْطَانِ وَالْهَوَىٰ؛ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا لَهُ بِالْمَعْنَىٰ الْعَامِّ الَّذِي سَبَقَ تَقْرِيرُهُ؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ الْعَامَّةَ قَهْرِيَّةٌ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْفَكَّ مِنْ أَسْرِهَا، وَلَا أَنْ يَخْرُجَ عَنْهَا قِيدَ أُنْمُلَةٍ وَلَا أَقَلَّ مِنْهَا، وَأَمَّا الْعُبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ؛ فَإِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- جَعَلَ فِيهَا الِاخْتِيَارَ مَحَلَّ الِابْتِلَاءِ وَمَنَاطَ التَّكْلِيفِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَأْتِي بِهَا للهِ جَلَّ وَعَلَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ سِوَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

لِذَلِكَ جَاءَ فِي نُصُوصِ الشَّرْعِ تَخْصِيصُ الْمُؤْمِنِينَ بِعُبُودِيَّتِهِمْ للهِ -تَعَالَىٰ- دُونَ الْكَافِرِينَ بِاعْتِبَارِ تَحْقِيقِهِمْ لِهَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٩-٣٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ إِذْ الِاسْتِثْنَاءُ هُنَا مُنْقَطِعٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

هَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ هِيَ أَصْلُ الْمُنَازَعَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَعْدَائِهِمْ، وَهِيَ الَّتِي جَاءَتْ أَكْثَرُ النُّصُوصِ فِي تَقْرِيرِهَا؛ إِذْ بِهَا وَقَعَ الشِّرْكُ، وَزَلَّتِ الْأَقْدَامُ،

وَزَاغَتِ الْأَفْهَامُ، فَعُبِدَ غَيْرُ اللهِ -تَعَالَىٰ- مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا.

فَالنُّصُوصُ الْآمِرَةُ بِعِبَادَةِ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَالنَّاهِيَةُ عَنِ الْإِشْرَاكِ بِهِ هِيَ فِي هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ الْخَاصَّةِ؛ لِأَنَّهَا مَحَلُّ التَّكْلِيفِ وَالِاخْتِيَارِ.

وَعَلَيْهِ؛ فَغَالِبُ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ مِنْ حَيْثُ التَّعْرِيفُ وَالتَّقْرِيرُ هُوَ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ الْعَامَّةَ قَهْرِيَّةٌ تَسْخِيرِيَّةٌ، فَالْكُلُّ عَبْدٌ للهِ مَرْبُوبٌ مُسَخَّرٌ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَمَّا الَّذِي وَقَعَتْ فِيهَا الْمِحْنَةُ فَهِيَ الْعُبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ؛ لِأَنَّهَا مَحَلُّ الِاخْتِيَارِ وَالتَّكْلِيفِ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذَا الْأَمْرِ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْعُبُودِيَّةِ الْعَامَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ الْخَاصَّةِ، وَمَحَلِّ النِّزَاعِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَلَا بُدَّ مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُطْلَقَةٌ دُونَ الْإِضَافَةِ إِلَىٰ أَحَدٍ، وَبَيْنَ تَعْرِيفِهَا بِاعْتِبَارِهَا الْعِبَادَةَ الْحَقَّةَ الْمَأْمُورَ بِهَا شَرْعًا، وَهِيَ الَّتِي تُضَافُ إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَمِنْ حَيْثُ الْإِطْلَاقُ يَدْخُلُ فِي الْعِبَادَةِ مَا صُرِفَ مِنْهَا لِغَيْرِ اللهِ -تَعَالَىٰ-، فَتُسَمَّىٰ عِبَادَةً؛ لَكِنَّهَا عِبَادَةٌ بَاطِلَةٌ، لَا يَحْظَىٰ مَعَهَا صَاحِبُهَا بِاسْمِ إِسْلَامٍ وَلَا إِيمَانٍ.

أَمَّا تَعْرِيفُهَا بِاعْتِبَارِهَا الْمَأْمُورَ بِهَا شَرْعًا؛ فَالْمَعْنَىٰ مُنْصَرِفٌ إِلَىٰ كَوْنِهَا خَالِصَةً لِوَجْهِ اللهِ -تَعَالَىٰ-، مُتَّبَعًا بِهَا طَرِيقُ الْمُرْسَلِينَ، وَهُوَ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

بِاسْتِصْحَابِ هَذَا التَّفْرِيقِ يَتَّضِحُ التَّنَوُّعُ فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَعْرِيفِهِمْ لِلْعِبَادَةِ.

فَمَنْ عَرَّفَهَا بِأَنَّهَا غَايَةُ الْمَحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ فَهَذَا بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهَا الْمُطْلَقِ، وَمَنْ عَرَّفَهَا بِأَنَّهَا الْخُضُوعُ للهِ بِالطَّاعَةِ، أَوْ بِأَنَّهَا مَحَبَّةُ اللهِ، أَوْ بِأَنَّهَا طَاعَةُ اللهِ بِامْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، أَوْ بِأَنَّهَا إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ للهِ -تَعَالَىٰ-، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَهَذَا بِاعْتِبَارِهَا الْمَأْمُورَ بِهَا شَرْعًا.

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ بِأَنَّهَا: «التَّوْحِيدُ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ الْمَقْبُولَةَ عِنْدَ اللهِ -تَعَالَىٰ- لَا تَكُونُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ».

فَلَا بُدَّ -أَيْضًا- مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُطْلَقَةٌ دُونَ إِضَافَةٍ إِلَىٰ أَحَدٍ وَبَيْنَ تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ بِاعْتِبَارِهَا الْعِبَادَةَ الْحَقَّةَ الْمَأْمُورَ بِهَا شَرْعًا، وَهِيَ الَّتِي تُضَافُ إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَفْهَمَ كَلَامَ عُلَمَائِنَا؛ لِأَنَّهُمْ يُنَوِّعُونَ عَلَىٰ حَسَبِ السِّيَاقِ، وَيَخْتَارُونَ الْمَعَانِيَ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ-.

هُنَاكَ تَفْرِيقٌ آخَرُ لَا بُدَّ مِنَ اسْتِصْحَابِهِ فِي تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ؛ وَهُوَ أَنَّ الْعِبَادَةَ تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا التَّعَبُّدُ، وَهُوَ فِعْلُ الْعَبْدِ، فَالْعِبَادَةُ تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا التَّعَبُّدُ، وَتُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الْمُتَعَبَّدُ بِهِ، وَهُوَ صُوَرُ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْعَبْدُ مِنْ صَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَنَحْوِهِمَا، فَيُقَالُ: هَذِهِ عِبَادَةٌ، وَهِيَ مَا يُتَعَبَّدُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَمَّا التَّعَبُّدُ الَّذِي هُوَ فِعْلُ الْعَبْدِ فَهُوَ عِبَادَةٌ -أَيْضًا-، فَهَذَا تَفْرِيقٌ مِنْ حَيْثُ الْإِطْلَاقُ عَلَىٰ هَذَا وَعَلَىٰ هَذَا.

بِهَذَا التَّفْرِيقِ يَتَّضِحُ أَلَّا تَعَارُضَ بَيْنَ تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ بِأَنَّهَا: غَايَةُ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالِانْقِيَادِ وَالْمَحَبَّةِ، وَتَعْرِيفِهَا بِأَنَّهَا: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، كَمَا مَرَّ فِي بَيَانِ التَّعْرِيفَيْنِ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الْأَوَّلُ: بِاعْتِبَارِ الْحَالِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ.

وَالثَّانِي: بِاعْتِبَارِ أَفْرَادِ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْعَبْدُ ظَاهِرًا أَوْ بَاطِنًا.

وَعَلَىٰ هَذَا فَتَعْرِيفُ الْعِبَادَةِ بِأَنَّهَا: مَا أَمَرَ بِهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَرْعًا مِنْ غَيْرِ اطِّرَادٍ عُرْفِيٍّ وَلَا اقْتِضَاءٍ عَقْلِيٍّ؛ هَذَا بِاعْتِبَارِ الْأَمْرِ الثَّانِي، أَيْ: بِاعْتِبَارِ أَفْرَادِ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْعَبْدُ ظَاهِرًا أَوْ بَاطِنًا؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ تَوْقِيفِيَّةٌ، فَهِيَ غَيْرُ مُطَّرِدَةٍ عُرْفًا وَلَا عَقْلًا.. مِنْ غَيْرِ اطِّرَادٍ عُرْفِيٍّ وَلَا اقْتِضَاءٍ عَقْلِيٍّ، بَلْ مَا أُمِرَ بِهِ شَرْعًا.

فَنُفَرِّقُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ؛ أَنَّ الْعِبَادَةَ تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا التَّعَبُّدُ، وَهُوَ فِعْلُ الْعَبْدِ، وَتُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا مَا يُتَعَبَّدُ بِهِ لِلهِ جَلَّ وَعَلَا، يَعْنِي: مِنْ أَفْرَادِ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْعَبْدُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَمَا يَقُومُ بِهِ الْعَبْدُ هَذَا تَعَبُّدٌ وَعِبَادَةٌ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ مِنْ أَفْرَادِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْعَبْدُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فَهَذَا -أَيْضًا- يُسَمَّىٰ عِبَادَةً لِلهِ جَلَّ وَعَلَا؛ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالزَّكَاةِ، وَمَا أَشْبَهَ.

❊ ❊ ❊

قَوَاعِدُ الْعِبَادَةِ

الْعُبُودِيَّةُ مُنْقَسِمَةٌ عَلَىٰ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَعَلَىٰ كُلٍّ مِنْهَا عُبُودِيَّةٌ تَخُصُّهُ، قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ مُوَضِّحًا ذَلِكَ[١]: «لَقَدْ بُنِيَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَىٰ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ: التَّحَقُّقُ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ قَوْلِ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَعَمَلِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، فَالْعُبُودِيَّةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ، فَأَصْحَابُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حَقًّا هُمْ أَصْحَابُهَا.

فَقَوْلُ الْقَلْبِ: هُوَ اعْتِقَادُ مَا أَخْبَرَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَلِقَائِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُ اللِّسَانِ: فَالْإِخْبَارُ عَنْهُ بِذَلِكَ، وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، وَالذَّبُّ عَنْهُ، وَتَبْيِينُ بُطْلَانِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لَهُ، وَالْقِيَامُ بِذِكْرِهِ، وَتَبْلِيغُ أَوَامِرِهِ.

وَأَمَّا عَمَلُ الْقَلْبِ: فَكَالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالرَّجَاءِ لَهُ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ أَوَامِرِهِ وَعَنْ نَوَاهِيهِ، وَعَلَىٰ أَقْدَارِهِ، وَالرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ، وَالْمُوَالَاةِ فِيهِ، وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ، وَالذُّلِّ لَهُ وَالْخُضُوعِ، وَالْإِخْبَاتِ

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ»: (١/ ١٢٠-١٢١).

إِلَيْهِ وَالطُّمَأْنِينَةِ بِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي فَرْضُهَا أَفْرَضُ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَمُسْتَحَبُّهَا أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ مُسْتَحَبِّهَا، وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ بِدُونِهَا إِمَّا عَدِيمُ الْمَنْفَعَةِ أَوْ قَلِيلُ الْمَنْفَعَةِ.

وَأَمَّا أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ: فَكَالصَّلَاةِ، وَالْجِهَادِ، وَنَقْلِ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَمُسَاعَدَةِ الْعَاجِزِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ الْخَلْقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ».

وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ هِيَ أَعْظَمُهَا وَأَهَمُّهَا؛ لِأَنَّهَا الْبَاعِثُ عَلَىٰ مَا سِوَاهَا، فَمَتَىٰ مَا كَانَ الْقَلْبُ مُسْتَكْمِلَ الْعُبُودِيَّةِ كَانَتْ جَوَارِحُهُ تَبَعًا لَهُ فِي ذَلِكَ، وَكُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ ﷻ ظَهَرَ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي إِعْرَاضِ اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ.

وَكَذَلِكَ الْحَالُ حِينَ يَكُونُ الْقَلْبُ مُنْصَرِفًا بِالْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ -تَعَالَىٰ-؛ فَإِنَّهُ يُسَخِّرُ كُلَّ جَوَارِحِهِ لِذَلِكَ الْمَعْبُودِ ذُلًّا وَخُضُوعًا، وَحَاجَةً وَاسْتِغْرَاقًا فِي حَالِ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ[1]: «فَإِنْ تَحَقَّقَ الْقَلْبُ بِمَعْنَىٰ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَصَدَقَ فِي ذَلِكَ وَأَخْلَصَ فِيهِ؛ اقْتَضَىٰ أَنْ يَرْسَخَ فِيهِ تَأَلُّهُ اللهِ وَحْدَهُ؛ إِجْلَالًا، وَهَيْبَةً، وَمَخَافَةً، وَمَحَبَّةً، وَرَجَاءً، وَتَعْظِيمًا، وَتَوَكُّلًا، وَيَمْتَلِئَ بِذَلِكَ، وَيُنْفَىٰ عَنْهُ تَأَلُّهُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ.

---

(١) «**جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ**»: (١/ ٥٢٤).

وَمَتَىٰ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَحَبَّةٌ، وَلَا إِرَادَةٌ، وَلَا طَلَبٌ لِغَيْرِ مَا يُرِيدُهُ اللهُ وَيُحِبُّهُ وَيَطْلُبُهُ، وَيَنْتَفِي بِذَلِكَ مِنَ الْقَلْبِ جَمِيعُ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ وَإِرَادَاتِهَا، وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ.

فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا وَأَطَاعَهُ، وَأَحَبَّ عَلَيْهِ وَأَبْغَض عَلَيْهِ -أَيْ: وَالَىٰ عَلَيْهِ وَعَادَىٰ عَلَيْهِ- فَهُوَ إِلَهُهُ، فَمَنْ كَانَ لَا يُحِبُّ وَلَا يَبْغَضُ إِلَّا للهِ، وَلَا يُوَالِي وَلَا يُعَادِي إِلَّا لَهُ؛ فَاللهُ إِلَهُهُ حَقًّا، وَمَنْ أَحَبَّ لِهَوَاهُ، وَأَبْغَض لَهُ، وَوَالَىٰ عَلَيْهِ، وَعَادَىٰ عَلَيْهِ؛ فَإِلَهُهُ هَوَاهُ».

مَفْهُومُ الْعِبَادَةِ وَحَقِيقَتُهَا فِي الْإِسْلَامِ

حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ: اسْتِسْلَامُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ للهِ حُبًّا وَخُضُوعًا لَهُ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ.

مَفْهُومُ الْعِبَادَةِ فِي الْإِسْلَامِ: أَنْ يَكُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ ضَمِيرُ الْإِنْسَانِ وَجَمِيعُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ لِأَجْلِ اللهِ عَجَّلَ عَلَىٰ مُرَادِهِ، لَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ لِأَجْلِ اللهِ عَجَّلَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْقَيْدِ الثَّانِي، وَهُوَ: عَلَىٰ مُرَادِهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُخْلِصُونَ بِأَلْوَانٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمُخْتَرَعَةِ؛ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُوَافِقُونَ بِهَا الِاتِّبَاعَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَالْمَعْنَىٰ إِذَنْ؛ أَنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ يَقُومُ بِهَا الْمُسْلِمُ فِي حَيَاتِهِ يَكُونُ الدَّافِعُ لِفِعْلِهَا رَجَاءَ مَحَبَّةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ، فَقَوْلُ الْقَوْلِ للهِ وَتَرْكُهُ لَهُ، وَفِعْلُ الْفِعْلِ للهِ وَتَرْكُهُ لَهُ، وَهَكَذَا حَيَاتُهُ كُلُّهَا تَكُونُ عِبَادَةً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ بَلْ وَمَوْتُهُ يَكُونُ للهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا قَالَ -تَعَالَىٰ- آمِرًا نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُقَرِّرَ هَذَا لِلنَّاسِ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

مِنْ أَمْثِلَةِ الْعِبَادَةِ -أَيْضًا-: طَلَبُ الْعِلْمِ، وَطَلَبُ الرِّزْقِ وَالنَّفَقَةِ عَلَىٰ الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ لِأَجْلِ تَرْبِيَتِهِمْ، وَكَذَلِكَ مُعَامَلَةُ النَّاسِ بِالْحُسْنَىٰ، وَالتَّحَلِّي بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ.

بَلْ إِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَسْبَغَ عَلَىٰ جَمِيعِ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ صِفَةَ الْعِبَادَةِ إِذَا قَصَدَ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ وَجْهَ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَمَرْضَاتَهُ، وَقَامَ بِهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ الْمُوَافِقِ لِلسُّنَّةِ، وَكَانَتْ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا الْمَقْصُودَةِ الْمَشْرُوعَةِ.

وَعَلَيْهِ فَكُلُّ صُوَرِ الْحَيَاةِ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ تَكُونُ عِبَادَةً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذَا لِتَتَحَوَّلَ الْحَيَاةُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَىٰ عِبَادَةٍ للهِ -تَعَالَىٰ- كَمَا أَرَادَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا، فَالْمُزَارِعُ وَالصَّانِعُ وَالتَّاجِرُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْمَالِ تُعْتَبَرُ أَعْمَالُهُمْ عِبَادَةً إِذَا قَصَدَ بِهَا كُلٌّ مِنْهُمْ نَفْعَ عِبَادِ اللهِ، وَالِاسْتِغْنَاءَ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ النَّاسِ، وَإِعَالَةَ الْعِيَالِ تَحْقِيقًا لِأَمْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَعَلَىٰ هَذَا فَكُلُّ مَا أُمِرَ بِهِ شَرْعًا -سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الشَّعَائِرِ، أَوْ مِنْ سَائِرِ أَحْوَالِ النَّاسِ- إِذَا ابْتَغَىٰ بِهِ فَاعِلُهُ وَجْهَ اللهِ -تَعَالَىٰ- فَهُوَ عِبَادَةٌ؛ سَوَاءٌ رَتَّبَ الشَّارِعُ عَلَيْهِ جَزَاءً مُحَدَّدًا، أَمْ أَتَىٰ الْأَمْرُ بِهِ مُطْلَقًا دُونَ تَحْدِيدِ جَزَاءٍ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ.

فَمِثَالُ مَا رُتِّبَ عَلَىٰ فِعْلِهِ جَزَاءٌ، وَيَحْصُلُ لِلْمُسْلِمِ هَذَا الْجَزَاءُ إِذَا كَانَ فِعْلُهُ مِنْ أَجْلِ اللهِ: مَا رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ سُلَامَىٰ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ**

الرَّجُلَ فِي دابَّتِهِ فتحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتاعَهُ صَدقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ صَدقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»(١). مُتَّفقٌ عَلَيْهِ.

فَاشْتَمَلَ الْحَدِيثُ عَلَىٰ بَعْضِ الْآدَابِ، وَجَعَلَ الشَّارِعُ الْقِيَامَ بِهَا عِبَادَةً يُثَابُ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ إِذَا نَوَىٰ أَنَّهُ إِنَّمَا قَامَ بِهَا مِنْ أَجْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

كَمَا أَنَّ التَّحَلِّيَ بِالْأَخْلَاقِ عِبَادَةٌ -أَيْضًا-؛ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَمَثَلُ مَا أُمِرَ بِهِ شَرْعًا وَلَمْ يُحَدَّدْ عَلَىٰ فِعْلِهِ جَزَاءٌ، وَيُعْتَبَرُ الْقِيَامُ به عِبَادَةً إذا نُوِيَ بِهَا الْقُرْبَةُ للهِ، وَيُؤْجَرُ عَلَيْهَا؛ مَثَلُ هَذَا: إِجَابَةُ دَعْوَةِ الْمُسْلِمِ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطْعَمْ**»(٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الصُّلْحِ: بَابُ فَضْلِ الإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ...، (٢٧٠٧)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الزَّكَاةِ: بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، (١٠٠٩)،

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ: بَابُ اسْتِحْبَابِ طَلَاقَةِ الْوَجْهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ، (٢٦٢٦).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ النِّكَاحِ: بَابُ الْأَمْرِ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِلَىٰ دَعْوَةٍ، (١٤٣١).

فَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ فِي إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ امْتِثَالَ أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ، وَإِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَىٰ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ؛ كَانَ فِعْلُهُ عِبَادَةً، أَمَّا مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ فِي إِجَابَتِهَا فَلَا يُعْتَبَرُ قَدْ قَامَ بِعِبَادَةٍ، وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ شُؤُونِ الْحَيَاةِ؛ مِنْ مَأْكَلٍ، وَمَشْرَبٍ، وَمَنْكَحٍ، وَنَوْمٍ، وَيَقَظَةٍ، وَسَفَرٍ، وَإِقَامَةٍ.. وَهَكَذَا، فَمَنْ نَوَىٰ بِكُلِّ هَذِهِ الْأُمُورِ وَأَمْثَالِهَا وَجْهَ اللهِ فَهِيَ عِبَادَةٌ مَأْجُورٌ عَلَيْهَا، وَكُلَّمَا كَانَتِ النِّيَّةُ أَشْمَلَ كَانَ الْأَجْرُ أَعْظَمَ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ**»(١). كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ.

لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ النِّيَّةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُوَافَقَةِ السُّنَّةِ، وَ-كَمَا مَرَّ- تَجِدُ الْمُوَفَّقُ تَتَحَوَّلُ عَادَاتُهُ إِلَىٰ عِبَادَاتٍ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، وَأَمَّا الْمَخْذُولُ فَتَتَحَوَّلُ عِبَادَاتُهُ إِلَىٰ عَادَاتٍ، النَّاسُ كُلُّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَأَكْثَرُهُمْ يَتَنَاسَلُونَ وَيَتَنَاكَحُونَ؛ وَلَكِنْ هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي تَقَعُ مِنَ الْكَائِنِ الْإِنْسَانِيِّ فِطْرَةً فَطَرَهُ اللهُ عَلَيْهَا تَصِيرُ عِبَادَةً للهِ -تَعَالَىٰ- بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ الصَّادِقَةِ.

النَّاسُ يَأْكُلُونَ؛ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَاذِقَ يَأْكُلُ بِنِيَّةٍ؛ يَأْكُلُ بِنِيَّةِ التَّمَتُّعِ بِمَا أَحَلَّ اللهُ -تَعَالَىٰ- لَهُ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَقَوَّىٰ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عَلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَعَلَىٰ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ لِتَحْصِيلِ الرِّزْقِ؛ لِيَمُونَ نَفْسَهُ وَمَنْ يَعُولُ، فَيَكُونُ أَكْلُهُ وَشُرْبُهُ -حِينَئِذٍ- عِبَادَةً للهِ جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيْحِ**»: كِتَابُ بَدْءِ الوَحْيِ: باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ...، (١)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيْحِ**»: كِتَابُ الْإِمَارَةِ: بَابُ قَوْلِهِ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، (١٩٠٧)، من حديث: عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه.

حَتَّىٰ نَوْمُهُ يَكُونُ عِبَادَةً للهِ جَلَّوَعَلَا بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، فَإِذَا مَا شَرَعَ فِي النَّوْمِ بِنِيَّةِ أَنْ يَتَقَوَّىٰ بِنَوْمِهِ عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وَعَلَىٰ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ لِتَحْصِيلِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ؛ فَهَذَا النَّوْمُ عِبَادَةٌ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وَهُوَ مَا فَطَرَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ الْكَائِنَ الْإِنْسَانِيَّ؛ لَكِنَّ هَذِهِ الْعَادَاتِ تَتَحَوَّلُ إِلَىٰ عِبَادَاتٍ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ عِنْدَ الْمُوَفَّقِ، وَأَمَّا الْمَخْذُولُ فَتَتَحَوَّلُ عِبَادَاتُهُ إِلَىٰ عَادَاتٍ.

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ: «رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُعَظِّمُهُ النِّيَّةُ، وَرُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُهُ النِّيَّةُ»(١).

أَمَّا مَنْ لَمْ يَنْوِ شَيْئًا فَلَيْسَتْ سِوَىٰ أَفْعَالٍ عَادِيَّةٍ؛ لِذَا تَبَايَنَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ تَبَايُنًا عَظِيمًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ كُلُّ عَادَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ عِبَادَةٌ للهِ؛ لِأَنَّهُ مُحْضِرٌ لِنِيَّتِهِ، قَاصِدٌ وَجْهَ اللهِ بِذَلِكَ، بَيْنَمَا بَعْضُ النَّاسِ قَدْ تَكُونُ كُلُّ عِبَادَاتِهِ -حَتَّىٰ الشَّعَائِرِ أَوْ بَعْضِهَا- عَادَاتٍ؛ وَذَلِكَ لِخُلُوِّ قَلْبِهِ مِنْ نِيَّةِ التَّقَرُّبِ للهِ جَلَّوَعَلَا.

وَعَلَىٰ هَذَا فَالْعِبَادَةُ تَشْمَلُ قَوْلَ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَعَمَلَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «وَبُنِيَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَىٰ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ: التَّحَقُّقُ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ قَوْلِ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَعَمَلِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، فَالْعُبُودِيَّةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ، فَأَصْحَابُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حَقًّا هُمْ أَصْحَابُهَا.

---

(١) «**سير أعلام النبلاء**» (٨/ ٤٠٠، ترجمة عَبْدُ اللهِ بنُ المُبَارَكِ: ١١٢).

(٢) «**مَدَارِجُ السَّالِكِينَ**»: (١/ ١٢٠-١٢١).

فَقَوْلُ الْقَلْبِ: هُوَ اعْتِقَادُ مَا أَخْبَرَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَلِقَائِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُ اللِّسَانِ: فَالْإِخْبَارُ عَنْهُ بِذَلِكَ، وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، وَالذَّبُّ عَنْهُ، وَتَبْيِينُ بُطْلَانِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لَهُ، وَالْقِيَامُ بِذِكْرِهِ، وَتَبْلِيغُ أَوَامِرِهِ.

وَأَمَّا عَمَلُ الْقَلْبِ: فَكَالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالرَّجَاءِ لَهُ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ أَوَامِرِهِ وَعَنْ نَوَاهِيهِ، وَعَلَىٰ أَقْدَارِهِ، وَالرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ، وَالْمُوَالَاةِ فِيهِ، وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ، وَالذُّلِّ لَهُ وَالْخُضُوعِ، وَالْإِخْبَاتِ إِلَيْهِ وَالطُّمَأْنِينَةِ بِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي فَرْضُهَا أَفْرَضُ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَمُسْتَحَبُّهَا أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ مُسْتَحَبِّهَا، وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ بِدُونِهَا إِمَّا عَدِيمُ الْمَنْفَعَةِ أَوْ قَلِيلُ الْمَنْفَعَةِ.

وَأَمَّا أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ: فَكَالصَّلَاةِ، وَالْجِهَادِ، وَنَقْلِ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَمُسَاعَدَةِ الْعَاجِزِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ الْخَلْقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ».

الدِّينُ كُلُّهُ عِبَادَةٌ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا شُرِعَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُبَيِّنَ لِلْإِنْسَانِ مَنْهَجَ حَيَاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَلِيُحَدِّدَ سُلُوكَهُ وَعَلَاقَاتِهِ بِالْآخَرِينَ؛ بَلْ إِنَّ عِبَادَةَ اللهِ تَسَعُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا؛ مِنْ آدَابِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَةِ، إِلَىٰ بِنَاءِ الدَّوْلَةِ، وَسِيَاسَةِ الْمَالِ، وَشُؤُونِ الْمُعَامَلَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَالْعَلَاقَاتِ الدَّوْلِيَّةِ فِي الْحَرْبِ وَالسِّلْمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُؤُونِ الْحَيَاةِ، هَذِهِ كُلُّهَا عِبَادَةٌ للهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِذَلِكَ خَاطَبَ اللهُ -تَعَالَىٰ- عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِأَوَامِرَ شَامِلَةٍ لِجَمِيعِ شُؤُونِ الْحَيَاةِ، وَلَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَىٰ الشَّعَائِرِ وَحْدَهَا كَمَا يَفْهَمُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ!!

فَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مِنْ كَلِمَةِ «الْعِبَادَةِ» إِذَا ذُكِرَتْ سِوَىٰ الصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ، وَلَا يُضِيفُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا يَعْتَدُّونَ بِأَنَّهُ مِنْهُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ، أَوِ النُّظُمِ، أَوِ التَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ، كَمَا يَحْسَبُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا بِهَذِهِ الشَّعَائِرِ فَقَدْ وَفَّوُا الْأُلُوهِيَّةَ حَقَّهَا، وَقَامُوا بِوَاجِبِ الْعُبُودِيَّةِ للهِ، وَهَذَا خَطَأٌ كَبِيرٌ وَضَلَالٌ مُبِينٌ.

هَذِهِ الشَّعَائِرُ الْعَظِيمَةُ وَالْأَرْكَانُ الرَّئِيسَةُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ لَهَا قِيمَتُهَا وَقَدْرُهَا؛ لَكِنَّهَا لَا تَعْنِي أَنَّهَا كُلُّ الْعِبَادَةِ، إِنَّمَا هِيَ جُزْءٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ للهِ، وَلَيْسَتْ كُلَّ الْعِبَادَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا اللهُ -تَعَالَىٰ- مِنْ عِبَادِهِ.

لِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ**»(١).

فَقَالَ ﷺ: «**بُنِي الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ**»، فَهَذِهِ مَا يُبْنَىٰ عَلَيْهِ، فَهِيَ جُزْءٌ مِنَ الْبِنَاءِ وَأَسَاسٌ لَهُ وَأَرْكَانٌ، وَلَيْسَتِ الْبِنَاءَ كُلَّهُ، بَلْ هُنَاكَ مَا يُبْنَىٰ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَرْكَانِ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ لَفْظِ الْحَدِيثِ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ**»، فَهَذِهِ مَا بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا، هِيَ أَرْكَانُهُ وَأُسُسُهُ وَأُصُولُهُ، وَالْإِسْلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهَا، وَهِيَ أَرْكَانُهُ وَأَسَاسُهُ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الإِيمَانِ: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّà : «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ»...، (٨)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الإِيمَانِ: بَابُ قول النَّبِيِّ ﷺ بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ، (١٦)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فَدَائِرَةُ الْعِبَادَةِ الَّتِي خَلَقَ اللهُ لَهَا الْإِنْسَانَ، وَجَعَلَهَا غَايَتَهُ فِي الْحَيَاةِ وَمُهِمَّتَهُ فِي الْأَرْضِ دَائِرَةٌ رَحْبَةٌ وَسِيعَةٌ، تَشْمَلُ شُؤُونَ الْإِنْسَانِ كُلَّهَا، وَتَسْتَوْعِبُ حَيَاتَهُ جَمِيعَهَا، وَهَذَا مَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهِ، وَعَلَّمَهُ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ، وَالْأَدِلَّةُ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ.

النَّبِيُّ ﷺ عَلَّمَ أَصْحَابَهُ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ يَقُومُ بِهِ الْمُسْلِمُ فَهُوَ عِبَادَةٌ إِذَا قُصِدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ بَعْضًا مِنَ الْقُرُبَاتِ إِلَىٰ اللهِ ذَكَرَ مِنْ بَيْنِهَا: مُبَاضَعَةَ الرَّجُلِ لِزَوْجَتِهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ أُنَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ -يَعْنِي: أَنَّ أَهْلَ الْأَمْوَالِ ذَهَبُوا بِالْأَجْرِ- يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ -يَعْنِي: وَلَا نَمْلِكُ نَحْنُ أَمْوَالًا نَتَصَدَّقُ بِهَا-».

قَالَ «**أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**».

قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟!!».

قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الزَّكَاةِ: بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، (١٠٠٦).

فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ قَضاءَ شَهْوَةِ الْمَرْءِ لِامْرَأَتِهِ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي بُيِّنَ فِي الشَّرْعِ.. جعَلَ ذَلِكَ صَدَقَةً؛ حَتَّىٰ إِنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم تعَجَّبُوا فتَسَاءَلُوا: «أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟!!».

فَبيَّنَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْبَيَانِ النَّبَوِيِّ الشَّفِيفِ هَذَا الْمَعْنَىٰ، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**».

فَمَا بَالُكَ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ مِمَّا يُتَعَبَّدُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ؟!!

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُثِبْتَ عَلَيْهَا؛ حَتَّىٰ اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ**»(١).

حَتَّىٰ اللُّقْمَةُ يَجْعَلُهَا الرَّجُلُ فِي فَمِ امْرَأَتِهِ يُثَابُ عَلَيْهَا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ**»(٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»(٣).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الإِيمَانِ: بَابُ مَا جَاءَ إِنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ...، (٥٦)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْوَصِيَّةِ: بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ، (١٦٢٨).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الإِيمَانِ: بَابُ مَا جَاءَ إِنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ...، (٥٥)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الزَّكَاةِ: بَابُ فَضْلِ النَّفَقَةِ وَالصَّدَقَةِ عَلَىٰ الْأَقْرَبِينَ..، (١٠٠٢).

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «**السُّنَنِ**»: كِتَابُ الْأَدَبِ: بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، (٤٧٩٨).

=

هَذَا مَفْهُومٌ شَامِلٌ لِلْعِبَادَةِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ السَّلَفِ، كَمَا قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «لَكِنِّي أَنَامُ ثُمَّ أَقُومُ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي».

كَمَا مَرَّ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ؛ حَتَّىٰ فِي النَّوْمِ.

بَلْ إِنَّ التَّرْكَ -أَحْيَانًا- لِمَا يُتَقَرَّبُ بِهِ يَكُونُ عِبَادَةً للهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنِّي لَا أَتْرُكُ الذِّكْرَ إِلَّا بِنِيَّةِ إِجْمَامِ نَفْسِي -أَيْ: بِنِيَّةِ إِرَاحَتِهَا، وَطَلَبِ عَدَمِ مَلَالِهَا-؛ لِأَسْتَرِيحَ بِذَلِكَ لِذِكْرٍ آخَرَ»[2].

فَيَتْرُكُ الذِّكْرَ بِنِيَّةٍ، فَيَكُونُ تَرْكُهُ عِبَادَةً للهِ جَلَّ وَعَلَا، فَيَتْرُكُ الذِّكْرَ بِنِيَّةِ إِجْمَامِ نَفْسِهِ؛ لِيُرِيحَهَا بِذَلِكَ لِتَسْتَعِدَّ لِذِكْرٍ آخَرَ.

قَالَ زُبَيْدٌ الْيَامِيُّ[3]: «إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِي نِيَّةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ حَتَّىٰ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ».

=

وَالْحَدِيث صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**صَحِيحِ التَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ**»: (٣/ ٨، رقم ٢٦٤٣).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ بَعْثِ أَبِي مُوسَىٰ، وَمُعَاذٍ إِلَىٰ اليَمَنِ قَبْلَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، (٤٣٤١)، مِنْ رِوَايَةِ: أَبِي بُرْدَةَ... قَالَ: قَالَ مُعَاذٌ لِأَبِي مُوسَىٰ: «كَيْفَ تَقْرَأُ القُرْآنَ؟»... الحديث.

(٢) ذكر ذلك عنه تلميذه ابن القيم في «**الوابل الصيب**»: (ص٥٤).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**»: (رقم ١٩٥)، والفسوي في «**المعرفة والتاريخ**»: (٢/ ٧١٤)، وأبو نعيم في «**الحلية**»: (٥/ ٦١)، والخطيب في «**الجامع لأخلاق الراوي**»: (١/ رقم ٦٨٩ و ٦٩٠)، بإسناد صحيح، عن سُفْيَانَ الثوري، عَنْ زُبَيْدٍ، قَالَ: «يَسُرُّنِي أَنْ

=

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ(١): «رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُعَظِّمُهُ النِّيَّةُ، وَرُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُهُ النِّيَّةُ».

وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْمُلَ لَهُ عَمَلُهُ فَلْيُحَسِّنْ نِيَّتَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُؤْجِرُ الْعَبْدَ إِذَا أَحْسَنَ نِيَّتَهُ؛ حَتَّىٰ بِاللُّقْمَةِ»(٣).

قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(٤): «مِنَ التَّفَرُّغِ لِلْعِبَادَةِ: السَّعْيُ فِي السَّبَبِ؛ لَاسِيَّمَا لِمَنْ لَهُ عِيَالٌ».

فَهَذَا تَفَرُّغٌ لِلْعِبَادَةِ؛ أَنْ يَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ لِتَحْصِيلِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ، فَـ«مِنَ التَّفَرُّغِ لِلْعِبَادَةِ: السَّعْيُ فِي السَّبَبِ؛ لَاسِيَّمَا لِمَنْ لَهُ عِيَالٌ».

فَيَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ ذِي بَصِيرَةٍ أَنْ يُصَحِّحَ مَفْهُومَهُ الْخَاطِئَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادَةِ وَمَفْهُومِهَا، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَتَعَبَّدُ بِهَا للهِ جَلَّ وَعَلَا، فَإِذَا فَهِمَ هَذَا فَهْمًا صَحِيحًا فَلَا شَكَّ أَنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا تَصِيرُ -حِينَئِذٍ- عِبَادَةً للهِ

=

يَكُونَ لِي فِي كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ حَتَّىٰ فِي الْأَكْلِ وَالنَّوْمِ»، وفي روية أبي نعيم: «أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي فِي كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ، حَتَّىٰ فِي طَعَامِي وَشَرَابِي».

(١) «**سير أعلام النبلاء**» (٨/ ٤٠٠).

(٢) «**جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ**»: (١/ ٧١).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**» (رقم ١٥٥٢)، بإسناد صحيح، عن أَبي عُبَيْدَةَ بْنِ عُقْبَةَ بن نافع، أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْمُلَ لَهُ عَمَلُهُ فَلْيُحْسِنْ نِيَّتَهُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَأْجُرُ الْعَبْدَ إِذَا أَحْسَنَ نِيَّتَهُ».

(٤) «**السير**»: (٢/ ٥٧٠).

تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ كَمَا يُحِبُّ اللهُ جَلَّوَعَلَا وَيَرْضَىٰ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَبِيلِ الْعُبُودِيَّةِ الْعَامَّةِ؛ لِأَنَّهَا قَهْرِيَّةٌ تَسْخِيرِيَّةٌ، فَالْإِنْسَانُ عَبْدٌ للهِ مَقْهُورٌ مُسَخَّرٌ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ؛ حَتَّىٰ فِي حَالَةِ عِصْيَانِهِ لَا يَخْرُجُ عَنْ قَيْدِ الْعُبُودِيَّةِ، وَلَا يَنْفَكُّ عَنْ أَسْرِهَا، بَلْ هُوَ عَبْدٌ للهِ جَلَّوَعَلَا، وَإِبْلِيسُ عَبْدٌ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ؛ فَهُوَ مَقْهُورٌ مُسَخَّرٌ مَرْبُوبٌ، وَأَمَّا الْمَعْنَىٰ الْمُرَادُ فَهُوَ: أَنْ تَكُونَ الْحَيَاةُ كُلُّهَا ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا، بَادِيهَا وَخَافِيهَا عِبَادَةً للهِ جَلَّوَعَلَا بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، فَكُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ الْبَاطِنَةِ فَهُوَ عِبَادَةٌ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِاعْتِبَارِ مَا يُتَعَبَّدُ بِهِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَعَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَصْحِيحِ هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ، وَفِي مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا الَّتِي أَرَادَهَا الدِّينُ؛ لِأَنَّ مَعْرِفَتَهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الْحَقِّ يُغَيِّرُ شَكْلَ الْحَيَاةِ، وَيَضَعُ الْمَرْءَ عَلَىٰ رَأْسِ طَرِيقِهِ الْمُسْتَقِيمِ؛ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِلَىٰ الْوُصُولِ أَدْنَىٰ، وَيَكُونُ إِلَىٰ تَحْصِيلِ الْغَايَةِ أَقْرَبَ؛ وَإِلَّا: فَـ

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتُ مُغَرِّبًا ... شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

وَاللهُ -تَعَالَىٰ- الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَىٰ: «الْعِبَادَةُ.. مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتُهَا وَأَرْكَانُهَا وَشُرُوطُ صِحَّتِهَا» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَرْبِعَاءُ ٣ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٨هـ| ٢٦-٧-٢٠١٧م.

أَرْكَانُ الْعِبَادَةِ

إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ حِكْمَتِهِ: جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ يُرَادُ قِيَامُهُ أَرْكَانًا يَقُومُ عَلَيْهَا وَيَعْتَمِدُ؛ سَوَاءٌ كَانَ مَعْنَوِيًّا أَوْ حِسِّيًّا، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ وَيَكُونَ لَهُ أَثَرٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا إِذَا اسْتَكْمَلَ مَا يَلْزَمُهُ مِنْ أَرْكَانٍ، وَمِنْ ذَلِكَ: عِبَادَةُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَقُومَ وَتُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَتْ فِيهَا هَذِهِ الْأَرْكَانُ، فَإِذَا فَقَدَ وَاحِدًا مِنْهَا فَلَا قِيمَةَ لَهَا، وَلَا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً حِينَئِذٍ.

وَهَذِهِ الْأَرْكَانُ هِيَ:

الرُّكْنُ الْأَوَّلُ: الْمَحَبَّةُ: وَالْمُرَادُ بِهَا: أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُحِبًّا للهِ -تَعَالَىٰ-، وَمَحَبَّتُهُ لَهُ مُنْتَهَىٰ الْحُبِّ، فَيَفْعَلُ الْعِبَادَاتِ بِدَافِعِ مَحَبَّتِهِ للهِ، وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ لَهُ، طَلَبًا فِي إِرْضَائِهِ، وَطَلَبًا فِي تَحْصِيلِ مَرْضَاتِهِ، وَالَّذِي يَدْفَعُهُ لِفِعْلِ الْعِبَادَةِ هُوَ مَحَبَّتُهُ لَهُ ﷻ، وَهَذَا أَعْظَمُ أَرْكَانِ الْعُبُودِيَّةِ، فَمَنْ لَا يُحِبُّ اللهَ لَا يَكُونُ لَهُ عَابِدًا، وَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ مَنْ هُوَ أَجْدَرُ مِنَ اللهِ ﷻ بِأَنْ يُحَبَّ، فَهُوَ صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالْجُودِ وَالْكَرَمِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْعَطَاءِ وَالْمِنَّةِ، الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، وَخَلَقَ لَهُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، وَخَلَقَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ، وَكَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ عَلَىٰ

كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَهُ، وَرَزَقَهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ، وَاسْتَخْلَفَهُ فِي الْأَرْضِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ؛ فَمَنْ أَوْلَىٰ مِنَ اللهِ بِأَنْ يُحَبَّ؟!!

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَأْنِ مَحَبَّةِ اللهِ(١): «وَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي فِيهَا تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ، وَإِلَيْهَا شَخَصَ الْعَامِلُونَ، وَإِلَىٰ عَلَمِهَا شَمَّرَ السَّابِقُونَ، وَعَلَيْهَا تَفَانَىٰ الْمُحِبُّونَ، وَبِرُوحِ نَسِيمِهَا تَرَوَّحَ الْعَابِدُونَ؛ فَهِيَ قُوتُ الْقُلُوبِ، وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَقُرَّةُ الْعُيُونِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي مَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ.

وَهِيَ النُّورُ الَّذِي مَنْ فَقَدَهُ فَهُوَ فِي بِحَارِ الظُّلُمَاتِ، وَالشِّفَاءُ الَّذِي مَنْ عُدِمَهُ حَلَّتْ بِقَلْبِهِ جَمِيعُ الْأَسْقَامِ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي مَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا فَعَيْشُهُ كُلُّهُ هُمُومٌ وَآلَامٌ، وَهِيَ رُوحُ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ وَالْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي مَتَىٰ خَلَتْ مِنْهَا فَهِيَ كَالْجَسَدِ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ، تَحْمِلُ أَثْقَالَ السَّائِرِينَ إِلَىٰ بِلَادٍ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ بَالِغِيهَا، وَتُوصِلُهُمْ إِلَىٰ مَنَازِلَ لَمْ يَكُونُوا بِدُونِهَا أَبَدًا وَاصِلِيهَا، وَتُبَوِّؤُهُمْ مِنْ مَقَاعِدِ الصِّدْقِ مَقَامَاتٍ لَمْ يَكُونُوا لَوْلَاهَا دَاخِلِيهَا، وَهِيَ مَطَايَا الْقَوْمِ الَّتِي مَرَامُهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهَا دَائِمًا إِلَىٰ الْحَبِيبِ، وَطَرِيقُهُمُ الْأَقْوَمُ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمُ الْأُولَىٰ مِنْ قَرِيبٍ.

تَاللهِ! لَقَدْ ذَهَبَ أَهْلُهَا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إِذْ لَهُمْ مِنْ مَعِيَّةِ مَحْبُوبِهِمْ أَوْفَرُ نَصِيبٍ، وَقَدْ قَضَىٰ اللهُ يَوْمَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ أَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، فَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ عَلَىٰ الْمُحِبِّينَ سَابِغَةٌ!

---

(١) «**مَدَارِجُ السَّالِكِينَ**»: (٣/ ٨-٩).

تَاللهِ! لَقَدْ سَبَقَ الْقَوْمُ السُّعَاةَ وَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِ الْفُرُشِ نَائِمُونَ، وَقَدْ تَقَدَّمُوا الرَّكْبَ بِمَرَاحِلَ وَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ وَاقِفُونَ.

مَــنْ لِــي بِمِثْــلِ سَــيْرِكَ الْمُــدَلَّلِ تَمْشِي رُوَيْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ(١)

أَجَابُوا مُنَادِيَ الشَّوْقِ إِذْ نَادَىٰ بِهِمْ: «حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ»، وَبَذَلُوا نُفُوسَهُمْ فِي طَلَبِ الْوُصُولِ إِلَىٰ مَحْبُوبِهِمْ، وَكَانَ بَذْلُهُمْ بِالرِّضَا وَالسَّمَاحِ، وَوَاصَلُوا إِلَيْهِ الْمَسِيرَ بِالْإِدْلَاجِ وَالْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ.

تَاللهِ! لَقَدْ حَمِدُوا عِنْدَ الْوُصُولِ سُرَاهُمْ، وَشَكَرُوا مَوْلَاهُمْ عَلَىٰ مَا أَعْطَاهُمْ، وَإِنَّمَا يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَىٰ عِنْدَ الصَّبَاحِ».

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الذُّلِّ وَمَعْنَىٰ الْحُبِّ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ للهِ -تَعَالَىٰ- بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ؛ فَإِنَّ آخِرَ مَرَاتِبِ الْحُبِّ هُوَ التَّتَيُّمُ، وَأَوَّلُهُ الْعَلَاقَةُ؛ لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ، ثُمَّ الصَّبَابَةُ؛ لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ الْغَرَامُ؛ وَهُوَ الْحُبُّ الْمُلَازِمُ لِلْقَلْبِ، ثُمَّ الْعِشْقُ، وَآخِرُهَا التَّتَيُّمُ، يُقَالُ: «تَيْمُ اللهِ» أَيْ: «عَبْدُ اللهِ»، فَالْمُتَيَّمُ: الْمُعَبَّدُ لِمَحْبُوبِهِ، وَمَنْ

---

(١) البيت لشيخ الإسلام ابن تيمية، أخرجه ابن ناصر الدين الدمشقي في «الرد الوافر» (ص ٨٥، ترجمة ابْن القلانسي: ٤٢)، وابن تغري في «المنهل الصافي» (١/ ٥٢ - ٥٣)، قال الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان اليونيني في مشيخته، قال: شيخنا مجد الدين، -يعني: ابن القلانسي-، سمعت شيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية يقول: «من لي بمثل سيرك المدلّل... تمشي رويدا وتجيء في الأول».

(٢) «**العبودية**» ضمن «**مجموع الفتاوىٰ**»: (١٠/ ١٥٣).

خَضَعَ لِإِنْسَانٍ مَعَ بُغْضِهِ لَهُ لَا يَكُونُ عَابِدًا لَهُ، وَلَوْ أَحَبَّ شَيْئًا وَلَمْ يَخْضَعْ لَهُ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا لَهُ، كَمَا يُحِبُّ الرَّجُلُ وَلَدَهُ وَصَدِيقَهُ؛ وَلِهَذَا لَا يَكْفِي أَحَدُهُمَا فِي عِبَادَةِ اللهِ -تَعَالَىٰ-، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اللهُ أَحَبَّ إِلَىٰ الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ اللهُ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ لَا يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ وَالْخُضُوعَ التَّامَّ إِلَّا اللهُ، وَكُلُّ مَا أَحَبَّ لِغَيْرِ اللهِ فَمَحَبَّتُهُ فَاسِدَةٌ».

فَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَلَمْ يَكُنْ مُحِبًّا لَهُ فَلَا عِبَادَةَ لَهُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُ قَائِمَةً عَلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَدَلِيلُ الْمَحَبَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «وَلِحُبِّهِمْ للهِ وَتَمَامِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ لَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، بَلْ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ، وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ، وَيَلْجَئُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ».

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ [التوبة: ٢٤].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «فَمَنْ كَانَ مُحِبًّا للهِ لَزِمَ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ؛ فَيُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَيَتَأَسَّىٰ بِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَمَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ

---

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ»: (١/ ٤٧٦).

(٢) «العبودية» ضمن «مجموع الفتاوىٰ»: (١٠/ ١٩١).

فَعَلَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِأَهْلِ مَحَبَّتِهِ عَلَامَتَيْنِ: اتِّبَاعَ الرَّسُولِ، وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَادَ حَقِيقَتُهُ: الِاجْتِهَادُ فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَمِنْ دَفْعِ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ».

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ طَعْمَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَالشَّاهِدُ قَوْلُهُ: **«أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»**، فَكُلَّمَا عَظُمَتْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ عَظُمَ تَقَرُّبُهُ لَهُ، وَقَوِيَتْ صِلَتُهُ بِهِ، وَزَادَتْ عِبَادَتُهُ؛ وَبِذَلِكَ تَحْصُلُ مَحَبَّةُ اللهِ لِلْعَبْدِ، كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -فِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»**(٢).

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الإِيمَانِ: بَابُ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ، (١٦)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْإِيمَانَ: بَابُ بَيَانِ خِصَالِ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، (٤٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الرِّقَاقِ: بَابُ التَّوَاضُعِ، (٦٥٠٢).

فَمَنْ أَحَبَّ اللهَ حُبًّا صَادِقًا بِحَيْثُ يَدْفَعُهُ لِلْعَمَلِ الْمَشْرُوعِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْمَحْظُورِ؛ فَإِنَّ هَذَا يُورِثُ مَحَبَّةَ اللهِ -تَعَالَىٰ- لَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ اللهُ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

الرُّكْنُ الثَّانِي: الرَّجَاءُ:

وَالرَّجَاءُ مِنَ الْأَمَلِ، نَقِيضُ الْيَأْسِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(١): «الرَّجَاءُ: حَادٍ يَحْدُو الْقُلُوبَ إِلَىٰ بِلَادِ الْمَحْبُوبِ؛ وَهُوَ اللهُ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ، وَيُطَيِّبُ لِلْقُلُوبِ السَّيْرَ، وَقِيلَ: هُوَ الِاسْتِبْشَارُ بِجُودِ وَفَضْلِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، وَالِارْتِيَاحُ لِمُطَالَعَةِ كَرَمِهِ -سُبْحَانَهُ-، وَقِيلَ: هُوَ الثِّقَةُ بِجُودِ الرَّبِّ -تَعَالَىٰ-».

وَالرَّجَاءُ رُكْنٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ: هُوَ أَنْ يَفْعَلَ الْعَبْدُ الْعِبَادَةَ بِدَافِعِ الرَّجَاءِ فِي ثَوَابِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَرَجَاءِ مَرْضَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ النَّافِعُ، فَهُوَ الْمَرْجُوُّ جَلَّ وَعَلَا وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ.

وَالرَّجَاءُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَنَالُ بِهَا الْعَبْدُ مَا يَرْجُوهُ مِنَ اللهِ، وَدَلِيلُ كَوْنِهِ مُقَرِّبًا إِلَىٰ اللهِ: قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- فِي وَصْفِ بَعْضِ أَنْبِيَائِهِ، وَذِكْرِ عِبَادَتِهِمْ وَالدَّافِعِ لَهَا: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ»: (٢/ ٣٦-٣٧).

وَأَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- عَنْ خَوَاصِّ عِبَادِهِ الَّذِينَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُمْ كَانُوا رَاجِينَ لَهُ خَاضِعِينَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦- ٥٧].

كَمَا وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يَرْجُونَ اللهَ طَمَعًا فِي ثَوَابِهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ ﴾ [الزمر: ٩].

وَأَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- عَنِ الصَّحَابَةِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ فَرُّوا بِدِينِهِمْ، وَتَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ، وَأَوْلَادَهُمْ، وَأَوْطَانَهُمْ، وَمَا عَمِلُوهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَالدَّافِعِ لِذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي»(١). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ»: أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ، (٣٥٤٠).

=

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فَوَائِدَ فِي رَجَاءِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، فَقَالَ(٢): «مِنْهَا: إِظْهَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْفَاقَةِ وَالْحَاجَةِ إِلَىٰ مَا يَرْجُوهُ مِنْ رَبِّهِ، وَيَسْتَشْرِفُهُ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَغْنِىٰ عَنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُحِبُّ -سُبْحَانَهُ- مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يُؤَمِّلُوهُ وَيَرْجُوهُ، وَيَسْأَلُوهُ مِنْ فَضْلِهِ؛ لِأَنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْجَوَادُ، أَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَىٰ، وَأَحَبُّ شَيْءٍ إِلَىٰ الْجَوَادِ أَنْ يُرْجَىٰ وَيُؤَمَّلَ وَيُسْأَلَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الرَّجَاءَ حَادٍ يَحْدُو بِهِ فِي سَيْرِهِ إِلَىٰ اللهِ، وَيُطَيِّبُ لَهُ الْمَسِيرَ، وَيَحُثُّهُ عَلَيْهِ، وَيَبْعَثُهُ عَلَىٰ مُلَازَمَتِهِ؛ فَلَوْلَا الرَّجَاءُ مَا سَارَ أَحَدٌ؛ فَإِنَّ الْخَوْفَ وَحْدَهُ لَا يُحَرِّكُ الْعَبْدَ، وَإِنَّمَا يُحَرِّكُهُ الْحُبُّ، وَيُزْعِجُهُ الْخَوْفُ، وَيَحْدُوهُ الرَّجَاءُ.

وَمِنْ فَوَائِدِ الرَّجَاءِ: أَنَّهُ يَبْعَثُهُ عَلَىٰ أَعْلَىٰ الْمَقَامَاتِ، وَهُوَ مَقَامُ الشُّكْرِ الَّذِي هُوَ خُلَاصَةُ الْعُبُودِيَّةِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا حَصَلَ لَهُ مَرْجُوُّهُ كَانَ أَدْعَىٰ لِشُكْرِهِ.

=

قال التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وَوَافَقَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (١/ ٢٤٩، رقم ١٢٧).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْجَنَّةِ: بَابُ الْأَمْرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَ الْمَوْتِ، (٢٨٧٧).

(٢) «**مَدَارِجُ السَّالِكِينَ**»: (٢/ ٥٠-٥١).

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُوجِبُ لَهُ الْمَزِيدَ مِنْ مَعْرِفَةٍ للهِ وَأَسْمَائِهِ وَمَعَانِيهَا، وَالتَّعَلُّقِ بِهَا؛ فَإِنَّ الرَّاجِيَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، مُتَعَبِّدٌ بِهَا، دَاعٍ بِهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِرَجَاءِ رَبِّهِ فَأَعْطَاهُ؛ كَانَ ذَلِكَ أَلْطَفَ مَوْقِعًا وَأَحْلَىٰ عِنْدَ الْعَبْدِ وَأَبْلَغَ مِنْ حُصُولِ مَا لَمْ يَرْجُهُ، وَهَذَا أَحَدُ الْأَسْبَابِ وَالْحِكَمِ فِي جَعْلِ الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَعَلَىٰ قَدْرِ رَجَائِهِمْ وَخَوْفِهِمْ يَكُونُ فَرَحُهُمْ فِي الْقِيَامَةِ بِحُصُولِ مَرْجُوِّهِمْ، وَانْدِفَاعِ مَخُوفِهِمْ.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللهَ ﷻ يُرِيدُ مِنْ عَبْدِهِ تَكْمِيلَ مَرَاتِبِ عُبُودِيَّتِهِ بِالتَّوْبَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَحَبِّ عُبُودِيَّاتِ عَبْدِهِ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ تَكْمِيلُهَا بِالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ فِي الرَّجَاءِ مِنَ الِانْتِظَارِ وَالتَّرَقُّبِ وَالتَّوَقُّعِ لِفَضْلِ اللهِ مَا يُوجِبُ تَعَلُّقَ الْقَلْبِ بِذِكْرِهِ، وَدَوَامَ الِالْتِفَاتِ إِلَيْهِ بِمُلَاحَظَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ».

وَالْفَوَائِدُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ.

وَفِي عَدَمِ رَجَاءِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يَأْسٌ وَقُنُوطٌ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهَذَا مُحَرَّمٌ لَا يَجُوزُ؛ بَلْ هُوَ كُفْرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ- ذَاكِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ جَوَابَهُ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

كَمَا نَهَىٰ -تَعَالَىٰ- عِبَادَهُ الَّذِينَ ارْتَكَبُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَأَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَّا يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَعَلَيْهِمُ الِاسْتِقَامَةُ وَرَجَاءُ ثَوَابِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وَقَدْ جَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ الدُّعَاءَ الْعِبَادَةَ، كَمَا فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»(١). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَقْوَىٰ أَسْبَابِ الرَّجَاءِ؛ لِذَلِكَ يَغْضَبُ اللهُ عَلَىٰ مَنْ تَرَكَ دُعَاءَهُ؛ لِأَنَّهُ تَرَكَ الرَّجَاءَ فِيهِ -تَعَالَىٰ-، كَمَا رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»(٢).

الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ: الْخَوْفُ:

فَكَمَا أَنَّ الْمُسْلِمَ يَعْبُدُ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حُبًّا لَهُ، وَرَجَاءً فِي ثَوَابِهِ، وَطَمَعًا فِي جَنَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ كَذَلِكَ يَعْبُدُهُ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَحَذَرًا مِنْ نَارِهِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «**السُّنَنِ**»: كِتَابُ الصَّلَاةِ: بَابُ الدُّعَاءِ، (١٤٧٩)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «**الْجَامِعِ**»: أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ: بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ، (٢٩٦٩)، وَابْنُ مَاجَه فِي «**السُّنَنِ**»: كِتَابُ الدُّعَاءِ: بَابُ فَضْلِ الدُّعَاءِ، (٣٨٢٨).
قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَكَذَا وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ**»: (٢/ ٢٧٥، رقم ١٦٢٦).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «**الْجَامِعِ**»: أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ: بَاب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الدُّعَاءِ، (٣٣٧٣)، وَابْنُ مَاجَه فِي «**السُّنَنِ**»: كِتَابُ الدُّعَاءِ: بَابُ فَضْلِ الدُّعَاءِ، (٣٨٢٧).
وَفِي رواية ابن ماجه، بلفظ: «مَنْ لَمْ يَدْعُ اللهَ سُبْحَانَهُ غَضِبَ عَلَيْهِ».
وَالْحَدِيث حَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (٦/ ٣٢٣، رقم ٢٦٥٤).

وَالْخَوْفُ: هُوَ تَوَقُّعُ الْعُقُوبَةِ عَلَىٰ مَجَارِي الْأَنْفَاسِ.

وَقِيلَ: **الْخَوْفُ**: اضْطِرَابُ الْقَلْبِ وَحَرَكَتُهُ مِنْ تَذَكُّرِ الْمَخُوفِ.

وَقِيلَ: **الْخَوْفُ**: هَرَبُ الْقَلْبِ مِنْ حُلُولِ الْمَكْرُوهِ عِنْدَ اسْتِشْعَارِهِ.

وَالْوَجَلُ وَالْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ وَالرَّهْبَةُ أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةٌ غَيْرُ مُتَرَادِفَةٍ، وَالْخَشْيَةُ أَخَصُّ مِنَ الْخَوْفِ؛ فَإِنَّ الْخَشْيَةَ لِلْعُلَمَاءِ بِاللهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، فَهُوَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِمَعْرِفَةٍ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَاللهِ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَالْخَوْفُ حَرَكَةٌ، وَالْخَشْيَةُ انْجِمَاعٌ وَانْقِبَاضٌ وَسُكُونٌ.

لِذَا يَجِبُ عَلَىٰ الْعَابِدِ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ بِدَافِعِ مَا مَضَىٰ مِنَ الْأَرْكَانِ؛ مِنَ الْمَحَبَّةِ، وَالرَّجَاءِ، وَبِدَافِعِ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمِنْ أَدِلَّةِ وُجُوبِ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الصِّيَامِ: بَابُ صِحَّةِ صَوْمِ مَنْ طَلَعَ عَلَيْهِ الْفَجْرُ وَهُوَ جُنُبٌ، (١١١٠)، مِنْ حَدِيثِ: عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

كَمَا مَدَحَ الْخَائِفِينَ وَالْخَاشِعِينَ للهِ، فَقَالَ فِي مَعْرِضِ ذِكْرِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٧- ٢٨].

كَمَا وَصَفَ بَعْضَ أَنْبِيَائِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وَأَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ وَالدَّافِعِ لِعِبَادَتِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٥٠].

وَقَالَ فِي وَصْفِهِمْ -أَيْضًا-: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ- فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ- عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا عَمِلُوهُ، وَذِكْرِ الدَّافِعِ لِذَلِكَ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٩- ١٠].

كَمَا وَعَدَ مَنْ خَافَهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠- ٤١].

وَقَالَ ﷺ: «وَاللهِ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ! قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَيَسْرِقُ؟

قَالَ: «**لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ يَصُومُ، وَيُصَلِّي، وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُ**»(١).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «عَمِلُوا -وَاللهِ- بِالطَّاعَاتِ وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً، وَالْمُنَافِقَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا».

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ(٣): «يُعْطُونَ الْعَطَاءَ وَهُمْ خَائِفُونَ وَجِلُونَ أَلَّا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ؛ لِخَوْفِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَصَّرُوا فِي الْقِيَامِ بِشُرُوطِ الْعَطَاءِ».

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(٤): «الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ الصَّادِقُ: مَا حَالَ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ مَحَارِمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ خِيفَ مِنْهُ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ، قَالَ أَبُو عُثْمَانَ: صِدْقُ الْخَوْفِ هُوَ الْوَرَعُ عَنِ الْآثَامِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ: مَا حَجَزَكَ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ».

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «**الْجَامِعِ**»: أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ: بَابٌ وَمِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، (٣١٧٥)، وَابْنُ مَاجَهْ فِي «**السُّنَنِ**»: كِتَابُ الزُّهْدِ: بَابُ التَّوَقِّي عَلَىٰ الْعَمَلِ، (٤١٩٨).
وَالْحَدِيث صَحَّحَهُ لِغَيْرِهِ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (١/ ١٦٢، رقم ٣٠٤).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «**الزُّهْدِ**»: (رقم ٩٨٥)، وَالطَّبَرِيُّ فِي «**جَامِعِ الْبَيَانِ**»: (١٨/ ٣٣).

(٣) «**تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ**»: (٥/ ٤٨٠).

(٤) «**مَدَارِجُ السَّالِكِينَ**»: (١/ ٥١٠).

وَهَذِهِ مِنْ فَوَائِدِهِ الْعَظِيمَةِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ يَحْمِي الْعَبْدَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ عَنِ ابْنِ آدَمَ الَّذِي تَبَرَّأَ مِنْ مُقَاتَلَةِ أَخِيهِ؛ إِذْ أَرَادَ قَتْلَهُ، وَأَوْضَحَ أَنَّ السَّبَبَ فِي الْكَفِّ عَنْ مُقَاتَلَتِهِ هُوَ خَوْفُهُ مِنَ اللهِ، فَقَالَ -تَعَالَىٰ- عَنْهُمَا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧- ٢٨].

وَمِنْ فَوَائِدِ الْخَوْفِ: أَنَّهُ يَدْفَعُ إِلَىٰ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْمُسَارَعَةِ فِيهَا؛ لِذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ**»(١). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَقُومُ وَتَسْتَقِيمُ إِلَّا بِهَذِهِ الْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ، فَلَا بُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، وَأَنْ تَكُونَ مُجْتَمِعَةً حَالَ فِعْلِهِ لِلْعِبَادَةِ؛ بَلِ الدَّافِعُ لِفِعْلِهَا اجْتِمَاعُهَا.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «اعْلَمْ أَنَّ مُحَرِّكَاتِ الْقُلُوبِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثَةٌ: الْمَحَبَّةُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَأَقْوَاهَا الْمَحَبَّةُ، وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ لِذَاتِهَا؛

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «**الْجَامِعِ**»: أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ، (٢٤٥٠)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال التِّرْمِذِيُّ «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وَصَحَّحَهُ بِشَوَاهِدِهِ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (٥/ ٤٤٢، رقم ٢٣٣٥).

(٢) «**مجموع الفتاوىٰ**»: (١/ ٩٥).

لِأَنَّهَا تُرَادُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِخِلَافِ الْخَوْفِ؛ فَإِنَّهُ يَزُولُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وَالْخَوْفُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ: الزَّجْرُ وَالْمَنْعُ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الطَّرِيقِ، فَالْمَحَبَّةُ تَلْقَىٰ الْعَبْدَ فِي السَّيْرِ إِلَىٰ مَحْبُوبِهِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ ضَعْفِهَا وَقُوَّتِهَا يَكُونُ سَيْرُهُ إِلَىٰ اللهِ، وَالْخَوْفُ يَمْنَعُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ طَرِيقِ الْمَحْبُوبِ، وَالرَّجَاءُ يَقُودُهُ، فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا تَحْصُلُ لَهُ الْعُبُودِيَّةُ بِدُونِهِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ لَا لِغَيْرِهِ».

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(١): «الْقَلْبُ فِي سَيْرِهِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- بِمَنْزِلَةِ الطَّائِرِ، فَالْمَحَبَّةُ رَأْسُهُ، وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فَمَتَىٰ سَلِمَ الرَّأْسُ وَالْجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ جَيِّدُ الطَّيَرَانِ، وَمَتَىٰ قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ، وَمَتَىٰ فُقِدَ الْجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ؛ وَلَكِنَّ السَّلَفَ اسْتَحَبُّوا أَنْ يَقْوَىٰ فِي الصِّحَّةِ جَنَاحُ الْخَوْفِ عَلَىٰ جَنَاحِ الرَّجَاءِ، وَعِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا يَقْوَىٰ جَنَاحُ الرَّجَاءِ عَلَىٰ جَنَاحِ الْخَوْفِ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَبِي سُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِ، قَالَ: يَنْبَغِي لِلْقَلْبِ أَنْ يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفَ، فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ فَسَدَ، وَقَالَ غَيْرُهُ: أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ اعْتِدَالُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَغَلَبَةُ الْحُبِّ، فَالْمَحَبَّةُ هِيَ الْمَرْكَبُ، وَالرَّجَاءُ حَادٍ، وَالْخَوْفُ سَائِقٌ، وَاللهُ الْمُوصِلُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ».

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ»: (١/ ٥١٣).

وَلَعَلَّ الرَّاجِحَ أَنْ يَعْتَدِلَ رَجَاءُ الْعَبْدِ وَخَوْفُهُ، فَلَا يَطْغَىٰ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الْآخَرِ إِلَّا عِنْدَ الِاحْتِضَارِ، فَيُغَلِّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ وَالثِّقَةِ بِاللهِ ﷻ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ﷻ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَاعْتِدَالُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فِي الْحَيَاةِ قَدِ اخْتَارَهُ جُمْلَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «اعْلَمْ أَنَّ الْمُخْتَارَ لِلْعَبْدِ فِي حَالِ صِحَّتِهِ أَنْ يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا، وَيَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ سَوَاءً، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ يُمَحِّضُ الرَّجَاءَ، وَقَوَاعِدُ الشَّرْعِ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُتَضَافِرَةٌ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ فِي سَاعَةِ الِاحْتِضَارِ وَمَا بَعْدَهَا أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَىٰ رَحْمَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَلَا يُقَدِّمُ وَلَا يُؤَخِّرُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ صَالِحًا؛ فَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ رَاجِيًا مَغْفِرَةَ اللهِ وَرِضْوَانَهُ، وَيَظُنَّ بِاللهِ خَيْرًا، وَاللهُ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ بِهِ».

فَهَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِأَرْكَانِ الْعِبَادَةِ.

❊❊❊

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْجَنَّةِ: بَابُ الْأَمْرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَ الْمَوْتِ، (٢٨٧٧).

(٢) «**شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ**»: (١٧/ ٢١٠).

أَقْسَامُ الضُّلَّالِ فِي تَحْقِيقِ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ

لَقَدْ ضَلَّ فِي تَحْقِيقِ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ أَقْوَامٌ:

* **مِنْهُمُ: الْقَبْرِيُّونَ:** فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ حُبًّا لَهُ فَقَطْ، فَلَا يَرْجُونَ ثَوَابَهُ، وَلَا يَخَافُونَ عَذَابَهُ، فَأَبْطَلُوا كُلَّ سَبَبٍ يَؤُولُ إِلَىٰ الرَّجَاءِ؛ كَالدُّعَاءِ، وَالْإِنَابَةِ، وَالتَّضَرُّعِ، وَنَحْوِهَا، كَمَا أَبْطَلُوا كُلَّ سَبَبٍ يَؤُولُ إِلَىٰ خَوْفِ اللهِ؛ كَدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَنَحْوِهِمَا، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ عِبَارَاتُ أَئِمَّتِهِمْ حَوْلَ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي حَكَتْ مَقَالَاتِهِمْ.

فَهَؤُلَاءِ الصُّوفِيَّةُ قَدْ ضَلُّوا فِي هَذَا الْبَابِ ضَلَالًا بَعِيدًا.

* **وَكَذَلِكَ ضَلَّ فِيهِ الْمُرْجِئَةُ؛** فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ بِالرَّجَاءِ فَقَطْ، فَلَا مَحَبَّةَ وَلَا خَوْفَ، بَلْ عِمَادُ عِبَادَتِهِمْ عَلَىٰ الرَّجَاءِ، وَهَذَا الَّذِي دَفَعَ كَثِيرًا مِنْهُمْ إِلَىٰ الِانْغِمَاسِ فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ وَارْتِكَابِ الْمُحَرَّمَاتِ -عِيَاذًا بِاللهِ ولياذا بِجَنَابِهِ الرَّحِيمِ-.

* **وَفِي مُقَابِلِ هَؤُلَاءِ: الْخَوَارِجُ** الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ بِالْخَوْفِ فَقَطْ، فَلَا يُحِبُّونَ وَلَا يَرْجُونَ، بَلْ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ فَقَطْ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «وَقَالَ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ».

وَالنُّصُوصُ الْوَارِدَةُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ -الَّتِي مَرَّ ذِكْرُ بَعْضِهَا عِنْدَ ذِكْرِ كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ- تَرُدُّ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَقُومُ وَلَا يَسْتَقِيمُ عُودُهَا إِلَّا بِهَذِهِ الْأَرْكَانِ مُجْتَمِعَةً، وَهَذَا هُوَ الَّذِي قَرَّرَهُ عُلَمَاءُ السَّلَفِ -عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَىٰ- فِي كُتُبِهِمْ، وَرَدُّوا عَلَىٰ هَذِهِ الطَّوَائِفِ، وَيَكْفِي فِي الرَّدِّ أَنَّ اللهَ جَمَعَ بَيْنَ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ.

فَهَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِأَرْكَانِ الْعِبَادَةِ.

❊❊❊

---

(١) «**العبودية**» ضمن «**مجموع الفتاوىٰ**»: (١٠/ ٢٠٧).

شُرُوطُ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ

لَا بُدَّ مِنْ صِحَّةِ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ، فَلَهَا شُرُوطُ صِحَّةٍ لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَفَّرَ، وَدَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ:

وَأَوَّلُ شُرُوطِ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ: الْإِخْلَاصُ؛ فَالْإِخْلَاصُ هُوَ لُبُّ الدِّينِ، وَعَمُودُهُ الْأَعْظَمُ، وَهُوَ لُغَةً: «تَصْفِيَةُ الشَّيْءِ وَتَنْقِيَتُهُ»، يُقَالُ: خَلَصَ الشَّيْءُ مِنَ الشَّوَائِبِ إِذَا صَفَا، وَأَخْلَصَ الشَّيْءَ: نَقَّاهُ، وَخَلَّصَهُ: أَزَالَ عَنْهُ مَا يُكَدِّرُهُ.

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْعُلَمَاءِ فِي الْمُرَادِ بِهِ شَرْعًا، فَقِيلَ: هُوَ «قَصْدُ الْمَعْبُودِ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ»، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وَقِيلَ: تَخْلِيصُ الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ يُكَدِّرُ صَفَاءَهُ.

وَقِيلَ: التَّوَقِّي مِنْ مُلَاحَظَةِ الْخَلْقِ.

وَقِيلَ: إِفْرَادُ الْحَقِّ -سُبْحَانَهُ- فِي الطَّاعَةِ بِالْقَصْدِ.

وَقِيلَ: مَا لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ، وَلَا عَدُوٌّ فَيُفْسِدُهُ، وَلَا يُعْجَبُ بِهِ صَاحِبُهُ فَيُبْطِلُهُ.

وَقِيلَ: أَنْ يَكُونَ الدَّاعِي إِلَىٰ الْإِتْيَانِ بِالْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَنْهِيِّ إِرْضَاءَ اللهِ -تَعَالَىٰ-.

وَالتَّعْرِيفَاتُ مُتَقَارِبَةٌ، وَمَدَارُهَا عَلَىٰ أَنْ يُرِيدَ الْعَبْدُ بِطَاعَتِهِ التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ -سُبْحَانَهُ- دُونَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ؛ مِنْ تَصَنُّعٍ لِمَخْلُوقٍ، أَوِ اكْتِسَابِ مَحْمَدَةٍ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ مَحَبَّةِ مَدْحٍ مِنَ الْخَلْقِ، أَوْ مَعْنًىٰ مِنَ الْمَعَانِي سِوَىٰ التَّقَرُّبِ بِهِ إِلَىٰ اللهَ -تَعَالَىٰ-.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(١): «أَهْلُ الإِخْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ وَالْمُتَابَعَةِ هُمْ أَهْلُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حَقِيقَةً، وَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا للهِ، وَأَقْوَالُهُمْ للهِ، وَعَطَاؤُهُمْ للهِ، وَمَنْعُهُمْ للهِ، وَحُبُّهُمْ للهِ، وَبُغْضُهُمْ للهِ؛ فَمُعَامَلَتُهُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لِوَجْهِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ مِنَ النَّاسِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، وَلَا ابْتِغَاءَ الْجَاهِ عِنْدَهُمْ وَطَلَبَ الْمَحْمَدَةِ وَالْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَا هَرَبًا مِنْ ذَمِّهِمْ، بَلْ قَدْ عَدُّوا النَّاسَ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، لَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا حَيَاةً وَلَا مَوْتًا وَلَا نُشُورًا».

وَقَدْ وَرَدَتْ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تُقَرِّرُ هَذَا الشَّرْطَ، مِنْهَا: قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- آمِرًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُوَضِّحَ لِأُمَّتِهِ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ٣٦].

وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ- مُوَضِّحًا مَا أُمِرَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ»: (١/ ١٠٤).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩ - ٢١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ**»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**».

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ:** «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً؛ أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟».

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ بَدْءِ الوَحْيِ: باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ..، (١)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْإِمَارَةِ: بَابُ قَوْلِهِ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، (١٩٠٧)، من حديث: عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ البر: بَابُ تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ...، (٢٥٦٤)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَهَذِهِ الْأَدِلَّةُ تَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوبِ إِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ.

فَالْإِخْلَاصُ شَرْطٌ لِصِحَّةِ الْعَمَلِ وَقَبُولِهِ إِنْ كَانَ عِبَادَةً مَحْضَةً؛ كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، وَالطَّوَافِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَشَرْطٌ لِحُصُولِ الثَّوَابِ إِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ كَالْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالنَّوْمِ، وَالْكَسْبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْعَادَاتِ تَتَحَوَّلُ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ إِلَىٰ عِبَادَاتٍ.

وَمَا أَعْظَمَ مَقَامَ الْإِخْلَاصِ عِنْدَ اللهِ!

وَمَا أَشَقَّهُ عَلَىٰ النَّفْسِ!

لِذَا جَدِيرٌ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ وَيُحَاسِبَهَا فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ؛ بَلْ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَلَحْظَةٍ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ(٢): «لَيْسَ عَلَىٰ النَّفْسِ شَيْءٌ أَشَقَّ مِنَ الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا -أَيْ: لِلنَّفْسِ- فِيهِ نَصِيبٌ».

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْعِلْمِ: بَابُ مَنْ سَأَلَ وَهُوَ قَائِمٌ عَالِمًا جَالِسًا، (١٢٣)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْإِمَارَةِ: بَابُ مَنْ قَاتَلَ لِتكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا...، (١٩٠٤).

(٢) «**تفسير التستري**»: (ص ٧٨)، و«**صفة الصفوة**»: (٢/ ٢٧٣، ترجمة سهل بن عبد الله التستري:٦٤٥).

وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ: «أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا الْإِخْلَاصُ، وَكَمْ أَجْتَهِدُ فِي إِسْقَاطِ الرِّيَاءِ عَنْ قَلْبِي، وَكَأَنَّهُ يَنْبُتُ فِيهِ عَلَىٰ لَوْنٍ آخَرَ».

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «فَعَمَلُ الْقَلْبِ هُوَ رُوحُ الْعُبُودِيَّةِ وَلُبُّهَا، فَإِذَا خَلَا عَمَلُ الْجَوَارِحِ مِنْهُ كَانَ كَالْجَسَدِ الْمَيِّتِ بِلَا رُوحٍ، وَالنِّيَّةُ هِيَ عَمَلُ الْقَلْبِ».

إِلَىٰ أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «... وَالْكَلَامُ فِي مَسْأَلَةِ النِّيَّةِ شَدِيدُ الِارْتِبَاطِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَمَعْرِفَةِ مَرَاتِبِهَا وَارْتِبَاطِهَا بِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَبِنَائِهَا عَلَيْهَا، وَتَأْثِيرِهَا فِيهَا صِحَّةً وَفَسَادًا، وَإِنَّمَا هِيَ الْأَصْلُ الْمُرَادُ الْمَقْصُودُ، وَأَعْمَالُ الْجَوَارِحِ تَبَعٌ وَمُكَمِّلَةٌ وَمُتَمِّمَةٌ، وَأَنَّ النِّيَّةَ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ، وَالْعَمَلَ بِمَنْزِلَةِ الْجَسَدِ لِلْأَعْضَاءِ الَّذِي إِذَا فَارَقَ الرُّوحَ فَمَوَاتٌ، وَكَذَلِكَ الْعَمَلُ إِذَا لَمْ تَصْحَبْهُ النِّيَّةُ فَحَرَكَةُ عَابِثٍ؛ فَمَعْرِفَةُ أَحْكَامِ الْقُلُوبِ أَهَمُّ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ الْجَوَارِحِ؛ إِذْ هُوَ أَصْلُهَا، وَأَحْكَامُ الْجَوَارِحِ مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا».

إِلَىٰ أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «وَالْمُؤْمِنُونَ الْعَارِفُونَ بِاللهِ وَبِأَمْرِهِ قَامُوا لَهُ بِحَقِيقَةِ الْعُبُودِيَّةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَقَدَّمُوا قُلُوبَهُمْ فِي الْخِدْمَةِ، وَجَعَلُوا الْأَعْضَاءَ تَبَعًا لَهَا، وَهِيَ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّ هَذَا هُوَ مَقْصُودُ الرَّبِّ بِإِرْسَالِ رُسُلِهِ، وَإِنْزَالِ كُتُبِهِ، وَشَرْعِهِ شَرَائِعَهُ، وَمَنْ تَأَمَّلَ الشَّرِيعَةَ فِي مَصَادِرِهَا وَمَوَارِدِهَا عَلِمَ ارْتِبَاطَ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَأَنَّهَا لَا تَنْفَعُ بِدُونِهَا، وَأَنَّ أَعْمَالَ

---

(١) «**بَدَائِعُ الْفَوَائِدُ**»: (٣/ ١٩٢).

(٢) «**بَدَائِعُ الْفَوَائِدُ**»: (٣/ ١٨٧).

(٣) «**بَدَائِعُ الْفَوَائِدُ**»: (٣/ ١٩٢).

الْقُلُوبِ أَفْرَضُ عَلَىٰ الْعَبْدِ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَهَلْ يُمَيِّزُ الْمُؤْمِنَ عَنِ الْمُنَافِقِ إِلَّا مَا فِي قَلْبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي مَيَّزَتْ بَيْنَهُمَا؟!! وَهَلْ يُمْكِنُ لِأَحَدٍ الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا بِعَمَلِ قَلْبِهِ قَبْلَ جَوَارِحِهِ؟!! فَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْجَوَارِحِ وَأَكْثَرُ وَأَدْوَمُ، فَهِيَ وَاجِبَةٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْإِيمَانُ وَاجِبَ الْقَلْبِ عَلَىٰ الدَّوَامِ، وَأَمَّا الْإِسْلَامُ وَاجِبَ الْجَوَارِحِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، فَمَرْكَبُ الْإِيمَانِ الْقَلْبُ، وَمَرْكَبُ الْإِسْلَامِ الْجَوَارِحُ».

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةً عَلَىٰ اعْتِقَادٍ صَحِيحٍ: أَنْ يَكُونَ الْعَابِدُ مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَعَنْ رَسُولِهِ، مُصَدِّقًا بِكُلِّ خَبَرٍ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَذَا الشَّرْطِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْأَضْوَاءِ»(١): «فَقَيَّدَ ذَلِكَ بِالْإِيمَانِ، وَمَفْهُومُ مُخَالَفَتِهِ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ مُؤْمِنٍ لَمَا قُبِلَ مِنْهُ ذَلِكَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

---

(١) «أَضْوَاءُ الْبَيَانِ»: (١٧/ ٢٢٣).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أُمَرَاءَكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»(١). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

فَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقُوا اللهَ» يَعْنِي: الْإِيمَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ الْعَبْدُ شَرْعًا، الَّذِي لَوْلَاهُ مَا قُبِلَتِ الْأَعْمَالُ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْدَهُ؛ فَدَلَّ عَلَىٰ لُزُومِ صِحَّةِ الِاعْتِقَادِ حَتَّىٰ تَصِحَّ الْأَعْمَالُ الْمُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وَلِهَذَا الشَّرْطِ أَبْطَلَ اللهُ قُرُبَاتِ الْكُفَّارِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا**﴾ [النور: ٣٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «**الْجَامِعِ**»: أَبْوَابُ السَّفَرِ، (٦١٦).

قال التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَكَذَا صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**صَحِيحِ مَوَارِدِ الظَّمْآنِ**»: (١/ ٣٥٣، رقم ٦٦٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ ابْنَ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ؛ فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ؟».

قَالَ: «**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَوْلَا هَذَا الشَّرْطُ لَصَحَّتْ أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَصْحَابِ النِّحَلِ وَالْفِرَقِ الضَّالَّةِ الَّذِينَ يُخْلِصُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ للهِ، فَتَجِدُهُمْ لَا يُرِيدُونَ بِالْقُرَبِ الَّتِي يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَّا اللهِ؛ لَكِنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبِدَعِ وَالنِّحَلِ مَا يَقْدَحُ بِإِيمَانِهِمْ، أَوْ يُزِيلُهُ بِالْكُلِّيَّةِ.

إِذَنْ؛ لَا بُدَّ مِنْ صِحَّةِ الِاعْتِقَادِ حَتَّىٰ تُقْبَلَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ.

وَهَذَا الشَّرْطُ -وَهُوَ صِحَّةُ الِاعْتِقَادِ- وَالَّذِي قَبْلَهُ -وَهُوَ الْإِخْلَاصُ للهِ فِي الْعَمَلِ الْمُتَقَرَّبِ بِهِ إِلَيْهِ- هُوَ مَعْنَىٰ شَهَادَةِ أَنْ (**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**).

الشَّرْطُ الثَّالِثُ مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ: الْمُتَابَعَةُ:

وَمَعْنَاهَا: أَنْ تَكُونَ عِبَادَةُ الْمُسْلِمِ تَابِعَةً لِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنَّ (**مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**)، وَهُوَ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ ﷺ، لَا يُعْبَدُ اللهُ بِالْبِدَعِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْإِيمَانِ: بَابُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَىٰ الْكُفْرِ لَا يَنْفَعُهُ عَمَلٌ، (٢١٤).

دَلِيلُ هَذَا الشَّرْطِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَكَذَا فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ الَّذِي عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢) أَيْ: مَرْدُودٌ عَلَيْهِ غَيْرُ مُتَقَبَّلٍ مِنْهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ يَذْكُرُ أَهْلَ الْإِخْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ وَالْمُتَابَعَةِ.. قَالَ مَا نَصُّهُ: «وَكَذَلِكَ أَعْمَالُهُمْ وَعِبَادَتُهُمْ مُوَافِقَةٌ لِأَمْرِ اللهِ وَلِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَهَذَا هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ عَامِلٍ سِوَاهُ، وَهُوَ الَّذِي ابْتَلَىٰ عِبَادَهُ بِالْمَوْتِ

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الصُّلْحِ: بَابُ إِذَا اصْطَلَحُوا عَلَىٰ صُلْحِ جَوْرٍ فَالصُّلْحُ مَرْدُودٌ، (٢٦٩٧)، وَمُسْلِمٌ في «**الصَّحِيحِ**»: كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ: بَابُ رَدِّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، (١٧١٨).

(٢) ذكره البخاري معلقا مجزوما به في «الصحيح»: كِتَابُ الْبُيُوعِ: بَابُ النَّجْشِ، (٤/ ٣٥٥)، و (١٣/ ٣١٧)، ووصله مسلم في «**الصحيح**»: كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ: بَابُ نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ...، (١٧١٨)، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَالْحَيَاةِ لِأَجْلِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وَجَعَلَ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَخْتَبِرَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

قَالَ الْفُضَيْلُ: «الْعَمَلُ الْحَسَنُ هُوَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ! مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا وَصَوَابًا، وَالْخَالِصُ: مَا كَانَ للهِ، وَالصَّوَابُ: مَا كَانَ عَلَىٰ السُّنَّةِ»، فَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ، عَلَىٰ مُتَابَعَةِ أَمْرِهِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَىٰ عَامِلِهِ، يُرَدُّ عَلَيْهِ أَحْوَجَ مَا هُوَ إِلَيْهِ هَبَاءً مَنْثُورًا»(١).

وَقَدْ جَمَعَ اللهُ بَيْنَ هَذِهِ الشُّرُوطِ الثَّلَاثَةِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وَبَيَانُ ذَلِكَ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: وَهُوَ الْإِخْلَاصُ، وَدَلِيلُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

وَالشَّرْطُ الثَّانِي: وَهُوَ الْمُتَابَعَةُ، وَدَلِيلُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وَالْمُحْسِنُ: هُوَ مَا كَانَ عَمَلُهُ وَفْقَ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: صِحَّةُ الْمُعْتَقَدِ، وَدَلِيلُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٣ - ٨٤).

قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ[(١)]: «أَيْ: لَا أَحَدَ أَحْسَنُ مِنْ دِينِ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْإِخْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ، وَهُوَ إِسْلَامُ الْوَجْهِ للهِ الدَّالُّ عَلَىٰ اسْتِسْلَامِ الْقَلْبِ وَتَوَجُّهِهِ وَإِنَابَتِهِ وَإِخْلَاصِهِ، وَتَوَجُّهِ الْوَجْهِ وَسَائِرِ الْأَعْضَاءِ للهِ.

وَهُوَ مَعَ هَذَا الْإِخْلَاصِ وَالِاسْتِسْلَامِ ﴿مُحْسِنٌ﴾ أَيْ: مُتَّبِعٌ لِشَرِيعَةِ اللهِ الَّتِي أَرْسَلَ اللهُ بِهَا رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ، وَجَعَلَهَا طَرِيقًا لِخَوَاصِّ خَلْقِهِ وَأَتْبَاعِهِ.

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أَيْ: دِينَهُ وَشَرْعَهُ ﴿حَنِيفًا﴾ أَيْ: مَائِلًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَعَنِ التَّوَجُّهِ لِلْخَلْقِ إِلَىٰ الْإِقْبَالِ عَلَىٰ الْخَالِقِ».

فَلَا بُدَّ مِنْ تَوَفُّرِ هَذِهِ الشُّرُوطِ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّىٰ تَكُونَ صَالِحَةً مَقْبُولَةً عِنْدَ اللهِ -تَعَالَىٰ-، أَمَّا إِذَا اخْتَلَّ شَرْطٌ مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ فَإِنَّهَا لَا تَصِحُّ، وَبِالتَّالِي لَا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا؛ بَلْ تَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِ.

وَلَعَلَّ الشَّرْطَ الثَّالِثَ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ مِنَ السَّلَفِ -كَمَا مَرَّ- مِنْ كَلَامِ الْفُضَيْلِ رَحِمَهُ اللهُ أَطْبَقُوا عَلَىٰ ذِكْرِ شَرْطَيْنِ؛ وَهُمَا: الْإِخْلَاصُ وَالْمُتَابَعَةُ.. لَعَلَّ الشَّرْطَ الثَّالِثَ -وَهُوَ لَازِمٌ مِنْ لَوَازِمِ الشَّرْطَيْنِ- لَعَلَّهُ يَكُونُ فِي ذِكْرِهِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الضَّلَالِ الَّذِي لَحِقَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ لَمْ يَصِحَّ مُعْتَقَدُهُمْ، فَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ صِحَّةِ الْمُعْتَقَدِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخَلْقِ ابْتَدَعُوا فِي دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَا لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ بِهِ سُلْطَانًا، وَهَؤُلَاءِ لَا يَصِحُّ اعْتِقَادُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ انْحَرَفُوا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَتَوْا بِهَذِهِ الْبِدَعِ الِاعْتِقَادِيَّةِ مَعَ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْإِخْلَاصِ.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٢٠٦).

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُتَابِعُونَ، فَيَكُونُونَ قَدِ انْحَرَفُوا غَيْرَ مُتَابِعِينَ النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْإِيمَانِ وَمَا نَهَجَ مِنْ سُبُلِ السَّلَامِ؛ وَلَكِنْ لَعَلَّ النَّصَّ عَلَىٰ ذَلِكَ ظَاهِرًا يَكُونُ نَافِعًا لِأَقْوَامٍ انْزَلَقَتْ أَقْدَامُهُمْ بَعِيدًا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَضَلَّتْ أَفْهَامُهُمْ عَنِ الْفَهْمِ الْكَرِيمِ، فَيُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ -وَاللهَ -تَعَالَىٰ- نَسْأَلُ أَنْ يَهْدِيَ الْجَمِيعَ إِلَىٰ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ(١).

❊❊❊

(١) من التعليق علىٰ: «العبادة: تعريفها - أركانها - شروطها - مبطلاتها».

مَنْزِلَةُ الْعِبَادَةِ فِي الْإِسْلَامِ وَثَمَرَتُهَا

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَخْبَرَهُ مِنْ فِيهِ إِلَىٰ أُذُنِهِ: قَالَ:** «انْطَلَقْتُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وبيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالَ: فَبِيْنَا أَنَا بالشَّامِ إذْ جِيءَ بكِتَابٍ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ إلىٰ هِرَقْلَ -يَعْنِي: عَظِيمَ الرُّومِ-.

وَفِي الْحَدِيثِ: «ثُمَّ دَعَا بكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَهُ فَإذَا فيه: بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إلىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ علَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الهُدَىٰ، أَمَّا بَعْدُ: فإنِّي أَدْعُوكَ بدِعَايَةِ الإسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثْمَ الأرِيسِيِّينَ، ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤]، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ ارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ عِنْدَهُ، وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَأُمِرَ بنَا فَأُخْرِجْنَا، قالَ: فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ خَرَجْنَا: لقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إنَّه لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأصْفَرِ، قالَ: فَما زِلْتُ مُوقِنًا بأَمْرِ رَسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ سَيَظْهَرُ حتَّىٰ أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإسْلَامَ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٣) ومسلم (٤٠٤٩).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ **فَقَالَ**: «يَا رَسُولَ اللهِ! دُلَّنِي عَلَىٰ عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ».

قَالَ: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ**».

قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا أَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا شَيْئًا أَبَدًا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَلَمَّا وَلَّىٰ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ هَذَا**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ.

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا نَبِيَّ اللهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ».

فَقَالَ الْقَوْمُ: مَا لَهُ؟! مَا لَهُ؟!

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَرَبٌ مَا لَهُ، تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ**»(٢). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ سَيِّدِ الِاسْتِغْفَارِ؟ اللهم أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، لَا يَقُولُهَا أَحَدُكُمْ**

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٧) ومسلم (١٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٦).

حِينَ يُمْسِي فَيَأْتِي عَلَيْهِ قَدَرٌ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَلَا يَقُولُهَا حِينَ يُصْبِحُ فَيَأْتِي عَلَيْهِ قَدَرٌ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَهُ عَنْ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ، قَالَ: وَفِي الْحَدِيثِ: «ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَاةُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟

قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ.

قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ؛ فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟

قَالَ: قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ.

قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ؛ فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَىٰ وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَىٰ مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ، وَمُسْلِمٌ.

فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُحِبُّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ الْعَظِيمَةَ، وَهِيَ الصَّلَاةُ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا فَرَضَهَا ابْتِدَاءً خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، ثُمَّ رَحِمَ عِبَادَهُ فَأَنْزَلَهَا إِلَىٰ خَمْسٍ، فَهِيَ خَمْسٌ فِي الْعَدَدِ وَخَمْسُونَ فِي الْأَجْرِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَبِيلِ التَّضْعِيفِ عَلَىٰ الثَّوَابِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ تَضْعِيفًا عَلَىٰ الثَّوَابِ مَا كَانَ هُنَالِكَ شَيْءٌ فِي أَمْرِ الْمُرَاجَعَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ كَذَلِكَ فَرَضَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَمْسًا بِخَمْسِينَ، وَيُؤْتِي اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ مَا هُوَ بِهِ حَقِيقٌ، وَهُوَ الْجَوَادُ الرَّحِيمُ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ عَبْدُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَقًّا وَصِدْقًا، وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَذَا الْوَصْفِ الْكَرِيمِ فِي أَعْظَمِ مَقَامَاتِهِ؛ فَوَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ -تَعَالَىٰ- فِي مَقَامِ التَّحَدِّي لِلْكُفَّارِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَوَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي مَقَامِ الْإِسْرَاءِ بِهِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ، فَذَكَرَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَأَضَافَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِنَفْسِهِ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا، وَوَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، فَهَذِهِ أَشْرَفُ الْمَقَامَاتِ.

وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَصِفُ عَبْدَهُ ﷺ بِهَذَا الْوَصْفِ الْكَرِيمِ، فَيُثْنِي عَلَيْهِ بِهِ الثَّنَاءَ الْعَظِيمَ؛ لِأَنَّهُ لِهَذَا خَلَقَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ حَقَّقَ ذَلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٧).

التَّحْقِيقَ الصَّحِيحَ، وَأَتَىٰ بِهِ عَلَىٰ النَّحْوِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ ﷺ، وَهُوَ خَيرُ عِبَادِ اللهِ ﷺ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَىٰ اللهِ، وَأَعْظَمُهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ ﷺ، فَوَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِذَلِكَ لِذَلِكَ؛ حَتَّىٰ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْتِي بِهَذَا الْوَصْفِ لِنَفْسِهِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي لَا يَفْهَمُهَا بَعْضُ مَنْ يُعَامِلُهُ؛ فَإِنَّ جَارِيَةً مَرَّتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَىٰ الْأَرْضِ يَأْكُلُ، فَقَالَتْ: «انْظُرُوا إِلَيْهِ! يَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَيَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ».

قَالَ: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَآكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ**».

وَلَمَّا رَآهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَرِهَبَهُ، وَارْتَعَدَتْ مِنْ رُؤْيَتِهِ فَرَائِصُهُ؛ رَهْبَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ قَالَ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِن قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**(١) **بِمَكَّةَ** ﷺ»(٢).

وَنَهَىٰ ﷺ عَنِ الْغُلُوِّ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(٣).

---

(١) (القَدِيد): لَحْمٌ يقطَّع، ويمَلَّح، ويجفَّف في الشَّمس والهواء، ثم يحمل في الأسفار عند العرب.
انظر: «**النهاية**»: ٤/ ٢٢، مادة: (قدد).

(٢) أخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: ٢/ ١١٠١، رقم (٣٣١٢)، من حديث: أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ**،...» الحديث.
والحديث صححه الألباني في «**صحيح الجامع**»: ٢/ ١١٨٥، رقم (٧٠٥٢)، وانظر: «**الصحيحة**»: ٤/ ٤٩٦، رقم (١٨٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب أحاديث الأنبياء: بَابُ قَوْلِ اللهِ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ..، (٣٤٤٥)، من حديث: من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ، سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ =

فَهَذَا مَا نَقُولُهُ ﷺ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ﷺ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوَازِنُ بَيْنَ حَقِّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي هُوَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ الْمَحْضَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَرَائِضِ الْعِبَادَاتِ وَنَوَافِلِهَا، وَيُوَازِنُ بَيْنَ حَقِّ النَّفْسِ، وَحَقِّ الْأَهْلِ، وَحَقِّ الْمُسْلِمِينَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ، فَكَانَ ﷺ بِذَلِكَ عَبْدًا للهِ حَقًّا وَصِدْقًا.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه **قال:** «جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا -أَيْ: عَدُّوهَا قَلِيلَةً-، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟!! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا».

فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

=

عَلَىٰ المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**لَا تُطْرُونِي...**» الحديث.

قَوْله: «**لَا تطروني**» الإطراء: مُجَاوزَة الْحَد فِي الْمَدْح وَالْكذب فِيهِ، وَذَلِكَ أَن النَّصَارَىٰ أفرطوا فِي مدح عِيسَىٰ وإطرائه بِالْبَاطِلِ، وجعلوه ولدا، فَمَنعهُمْ النَّبِي ﷺ من أَن يطروه بِالْبَاطِلِ، وقوله: «**فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ**»، أَيْ: لَسْتُ إِلَّا عَبْدًا، فَلَا تَعْتَقِدُوا فِيَّ شَيْئًا يُنَافِي الْعُبُودِيَّةَ، وقوله: «**فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»، أي: لِأَنِّي مَوْصُوفٌ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالرِّسَالَةِ، فَلَا تَقُولُوا فِيَّ شَيْئًا يُنَافِيهِمَا مِنْ نُعُوتِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣).

الْعِبَادَةُ تَنْتَظِمُ جَمِيعَ أُمُورِ الْحَيَاةِ مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ، فَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ ﷺ -وَهُوَ لا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا بِنِيَّةٍ ﷺ- مِنْ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ وَلَكِنْ مَنْ تَوَقَّفَ عِنْدَ حُدُودِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ مَقْصُورَةً عَلَىٰ الشَّعَائِرِ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ ظَاهِرٌ، وَغَفَلَ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ؛ فَقَدْ قَصَّرَ فِي فَهْمِ الدِّينِ تَقْصِيرًا عَظِيمًا، وَفَوَّتَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَجْرًا كَرِيمًا جَزِيلًا؛ لِأَنَّهُ فَوَّتَ أُمُورًا كَثِيرَةً يَتَحَصَّلُ مِنْ وَرَائِهَا عَلَىٰ الثَّوَابِ لَوْ صَلَحَتْ لَهُ فِيهَا نِيَّةٌ صَادِقَةٌ؛ حَتَّىٰ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَا ذَكَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «**أَصُومُ وَأُفْطِرُ**» فَفِطْرُهُ عِبَادَةٌ وَصَوْمُهُ عِبَادَةٌ، «**أُصَلِّي وَأَرْقُدُ**» فَصَلَاتُهُ عِبَادَةٌ، وَرُقَادُهُ عِبَادَةٌ، «وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ»، وَهَذِهِ عِبَادَةٌ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، «**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»؛ شَرِيطَةَ أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ فِي الْمُبَاحَاتِ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ صَادِقَةٍ لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ -كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ- كَانَ لَهُ حَصِيرٌ، وَكَانَ يُحَجِّرُهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُصَلِّي فِيهِ -أَيْ: يَتَّخِذُ الْحَصِيرَ حُجْرَةً فَيُصَلِّي فِيهِ-، فَجَعَلَ النَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، وَيَبْسُطُهَا بِالنَّهَارِ، فَثَابُوا -أَيِ: اجْتَمَعُوا- ذَاتَ لَيْلَةٍ: فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! علَيْكُم مِنَ الأعْمَالِ ما تُطِيقُونَ؛ فإِنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حتَّىٰ تَمَلُّوا، وإِنَّ أَحَبَّ الأعْمَالِ إلىٰ اللهِ ما دُووِمَ عليه وإنْ قَلَّ، وَكانَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إذَا عَمِلُوا عَمَلًا أَثْبَتُوهُ**»(١). الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَهُوَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨٢).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ -أَوْ: لَا إِلَهَ غَيْرُكَ-»(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ وَمُسْلِمٌ.

وَقَدْ كَتَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِلَىٰ مَسْلَمَةَ بْنِ مَخْلَدٍ: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ، فَإِذَا أَحَبَّهُ اللهُ، حَبَّبَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ أَبْغَضَهُ اللهُ، فَإِذَا أَبْغَضَهُ اللهُ بَغَّضَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ».

فَهَذَا فَهْمٌ مُسْتَقِيمٌ مِنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الْكَرِيمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَانَ سَلَفُنَا -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ- يَفْهَمُونَ هَذِهِ الْأُمُورَ الْعَظِيمَةَ الْفَهْمَ الَّذِي يَجِبُ، فَيَأْتُونَ فِيهَا بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ.

❊❊❊

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩).

مُبْطِلَاتُ الْعِبَادَةِ(١)

هَذِهِ الْعِبَادَةُ الْعَظِيمَةُ لَا بُدَّ مِنَ الْإِتْيَانِ بِأَرْكَانِهَا، وَتَوَفُّرِ صِحَّةِ هَذِهِ الْأَرْكَانِ، وَكَذَلِكَ لَا بُدَّ مِنَ اجْتِنَابِ مُبْطِلَاتِهَا، فَلَهَا مُبْطِلَاتٌ:

أَوَّلُهَا: الْإِشْرَاكُ فِي الْعِبَادَةِ: وَهُوَ أَنْ يُرِيدَ الْعَبْدُ بِعِبَادَتِهِ غَيْرَ اللهِ أَوْ مَعَ اللهِ، فَهَذَا مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ الْعَظِيمِ وَبَاطِلٌ عَمَلُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وَقَدْ أَوْحَىٰ اللهُ -تَعَالَىٰ- إِلَىٰ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ أَنَّ الشِّرْكَ مُحْبِطٌ لِلْعَمَلِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ- فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَأَبْطَلَ اللهُ جَمِيعَ قُرُبَاتِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ كَانُوا قَاصِدِينَ بِهَا وَجْهَ اللهِ؛ لِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ.

---

(١) من التعليق علىٰ: «العبادة: تعريفها - أركانها - شروطها - مبطلاتها».

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

* **الرِّدَّةُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَىٰ-**: وَهِيَ أَنْ يَتْرُكَ الْمُسْلِمُ دِينَهُ، وَيَعْتَنِقُ أَيَّ مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِ الْكُفْرِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-؛ فَإِنَّ الرِّدَّةَ مُحْبِطَةٌ لِلْعَمَلِ وَالْعِبَادَةِ السَّابِقَةِ إِذَا مَاتَ الْمُرْتَدُّ عَلَىٰ رِدَّتِهِ عَلَىٰ أَرْجَحِ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ذَلِكَ لِأَنَّ الرِّدَّةَ كُفْرٌ، وَالْكَافِرُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ أَيُّ عِبَادَةٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ عَقِيدَتَهُ لَيْسَتْ صَحِيحَةً، فَاخْتَلَّ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ.

* **وَمِمَّا يُبْطِلُ الْعِبَادَةَ: الرِّيَاءُ**: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ وَجْهَ اللهِ، لَكِنْ يُحَسِّنُ هَيْئَةَ الْعِبَادَةِ لِمَا يَرَىٰ مِنَ النَّاسِ، فَالْقَوْلُ الصَّحِيحُ إِنَّ عِبَادَتَهُ الَّتِي رَاءَىٰ فِيهَا بَاطِلَةٌ إِذَا كَانَتْ مِمَّا لَا يَتَجَزَّأُ كَالصَّلَاةِ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا يَتَجَزَّأُ كَالصَّدَقَةِ، كَمَنْ تَصَدَّقَ بِمِائَةٍ أَرَادَ خَمْسِينَ مِنْهَا وَجْهَ اللهِ، ثُمَّ زَادَ خَمْسِينَ أُخْرَىٰ رِيَاءً، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ الْخَمْسُونَ الَّتِي للهِ -تَعَالَىٰ-، وَتُرَدُّ الْخَمْسُونَ الْأُخْرَىٰ الَّتِي زَادَهَا لِأَجْلِ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَعْنَاهُ: أَنَا أَغْنَىٰ عَنِ الْمُشَارَكَةِ وَغَيْرِهَا، فَمَنْ عَمِلَ شَيْئًا لِي وَلِغَيْرِي لَمْ أَقْبَلْهُ، بَلْ أَتْرُكُهُ لِذَلِكَ الْغَيْرِ، وَالْمُرَادُ: أَنَّ عَمَلَ الْمُرَائِي بَاطِلٌ لَا ثَوَابَ فِيهِ وَيَأْثَمُ بِهِ»(١).

* **مِمَّا يُبْطِلُ الْعِبَادَةَ: الْمَنَّ فِيهَا:** فَالْمَنُّ بِالْعِبَادَةِ يُبْطِلُهَا، سَوَاءٌ مَنَّ الْفَاعِلُ بِهَا عَلَىٰ اللهِ أَوْ مَنَّ بِهَا عَلَىٰ خَلْقِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

فَالْمِنَّةُ للهِ وَحْدَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِهِمْ، وَمِنْ أَفْضَلِهَا هِدَايَةُ الْعَبْدِ لِلْإِيمَانِ، فَإِذَا مَنَّ الْعَبْدُ بِطَاعَتِهِ عَلَىٰ اللهِ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، لَا يَنْفَعُهُ طَاعَةُ الْمُطِيعِ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ الْعَاصِي.

كَمَا تَبْطُلُ عِبَادَةُ الْمَرْءِ إِذَا مَنَّ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَالِيَّةً أَوْ غَيْرَهَا، فَالْمَنُّ بِالصَّدَقَةِ يُبْطِلُهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾.

فَالْمَنُّ بِالْعِبَادَةِ سَوَاءٌ كَانَ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا أَوْ كَانَ عَلَىٰ خَلْقِهِ مُبْطِلٌ لِلْعِبَادَةِ.(*).

✿✿✿

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٨/ ١١٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَىٰ: «الْعِبَادَةُ.. مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتُهَا وَأَرْكَانُهَا وَشُرُوطُ صِحَّتِهَا» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ)، الْخَمِيسُ ٤ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٨هـ| ٢٧-٧-٢٠١٧م.

إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ

عِبَادَ اللهِ! لَقَدْ حَدَّدَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْغَايَةَ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَ الْخَلْقَ، فَقَالَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَهَذَا أُسْلُوبُ قَصْرٍ حَصَرَ فِيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِيمَا ذَكَرَهُ بَعْدُ مِنْ أَمْرِ عِبَادَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

وَإِفْرَادُ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- بِالْعِبَادَةِ: هُوَ صَرْفُ جَمِيعِ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، فَلَا يُعْبَدُ فِي الْحَقِيقَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَّا اللهُ، وَلَا يُصْرَفُ شَيْءٌ مِنْ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ إِلَّا للهِ، فَإِنْ صُرِفَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَهُوَ الشِّرْكُ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُسَامِحُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَتَهَاوَنُ فِي الْحِسَابِ عَلَيْهِ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الدَّوَاوِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةً[1]: «**فَدِيوَانٌ لَا يَدَعُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَغْفِرُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا**».

(١) يشير -حفظه الله- إلى حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثَةٌ: دِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا** =

فَأَمَّا «**الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَدَعُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا**»؛ فَالْمَظَالِمُ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْعِبَادِ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ إِذَا مَا خَلَصُوا مِنْ أَمْرِ الصِّرَاطِ فَجَازُوا، وَأَصْبَحُوا قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ مِنَ الْجَنَّةِ؛ نُصِبَتْ هُنَالِكَ عَلَىٰ طَرْفِ الصِّرَاطِ مِمَّا يَلِي الْجَنَّةَ قَنْطَرَةٌ يُقِيمُ عَلَيْهَا الَّذِينَ مَرُّوا عَلَىٰ الصِّرَاطِ، وَأَصْبَحُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ضِمْنًا.

يَظَلُّونَ عَلَىٰ تِلْكَ الْقَنْطَرَةِ يَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ دَارُ الطَّيِّبِ الْمَحْضِ، لَا يُجَاوِرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا مَنْ كَانَ طَيِّبًا مَحْضًا، كَمَا أَنَّ النَّارَ دَارُ الْخُبْثِ وَالْخَبِيثِ الْمَحْضِ، وَالَّذِي يَخْلُدُ فِيهَا هُوَ الْخَبِيثُ الْمَحْضُ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ.

=

يَغْفِرُهُ اللهُ، فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ: فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، **وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا: فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ، أَوْ صَلَاةٍ تَرَكَهَا، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا: فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، الْقِصَاصُ لَا مَحَالَةَ**».

أخرجه أحمد في «**المسند**»: (٦/ ٢٤٠)، وابن أبي حاتم في «**التفسير**»: (٤/ ١١٧٨، رقم٦٦٤٣)، والدينوري في «**المجالسة**»: (١/ ٢٩٢، رقم٦)، وأبو بكر الأنباري في حديثه: (١١١-مخطوط)، والحاكم في «**المستدرك**»: (٤/ ٥٧٥-٥٧٦)، وأبو نعيم الأصبهاني في «**أخبار أصبهان**»: (١/ ٤٢٦)، وابن بشران في «**الأمالي**»: (ص٨٠، رقم١١٠٨)، والبيهقي في «**شعب الإيمان**»: (٩/ ٥٤٠-٥٤١).

والحديث عزاه السيوطي في «**الدر المنثور**»: (٢/ ٥٥٨) إلىٰ ابن المنذر وابن مردويه، وروي عن أنس، وسلمان، وأبي هريرة ﷺ، مرفوعا، بنحوه.

فَهَذَا هُوَ «**الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَدَعُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا**»؛ لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا، مَظَالِمُ تَكُونُ بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الدُّنْيَا لَا تُقْضَىٰ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَقُّ، وَفِعْلُهُ الْعَدْلُ؛ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُقِيمَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَطْهِيرِ الْإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ حَتَّىٰ يَصِيرَ طَيِّبًا مَحْضًا؛ لِكَيْ يُجَاوِرَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فِي دَارِ الطَّيِّبِ الْمَحْضِ.

وَ«**دِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا**»: وَهُوَ ظُلْمُ الْعَبْدِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، ظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ أَمْرٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا.

وَأَمَّا «**الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا**»؛ فَهُوَ الشِّرْكُ، فَمَنْ لَقِيَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِشَيْءٍ مِنْهُ -وَلَوْ كَانَ قَلِيلَ الْقَدْرِ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ-؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَغْفِرُهُ بِحَالٍ أَبَدًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

وَلَمْ يَقْبَلِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟!! إِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»(١).

---

(١) أخرج ابن ماجه (٢١١٧)، وأحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في «**الأدب المفرد**» (٧٨٣) واللفظ له، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي رواية ابن ماجه: «**إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شِئْتَ**».

والحديث حسن إسناده الألباني في «**الصحيحة**»: (١٣٩ و١٠٩٣).

فَجَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَمْرَ الشِّرْكِ عَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ، وَبِهَذِهِ الْمَثَابَةِ، وَلَا يَغْفِرُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَا يَدَعُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَوَرَّطَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤَاخَذًا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، مُحَاسَبًا عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ.

إِذَنْ؛ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ بِعِبَادَةِ الْقَلْبِ، بِالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِقْبَالِ، بِالْإِنَابَةِ وَالْإِخْبَاتِ، كُلُّ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَصِيرَ بِهِ الْعَبْدُ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا يُشْرِكْ بِهِ مَعَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَحَدًا، فَإِنْ فَعَلَ؛ فَقَدْ تَوَرَّطَ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ لَا يُغْفَرُ.

وَكَذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ اللِّسَانِ، فَلَا يَجُوزُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَحْلِفَ بِغَيْرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**»[(١)]، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»، فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَحْلِفَ الْإِنْسَانُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَسْكُتْ**»[(٢)].

فَمَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-؛ فَقَدْ تَوَرَّطَ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الشِّرْكِ الْعَمَلِيِّ لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ؛ وَلَكِنَّهُ يَلْحَقُ فِيهِ بِالْمُشْرِكِينَ ظَاهِرًا: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٢/ ١٢٥)، واللفظ له، والحاكم (١/ ١٨)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وقال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ»، وكذا صححه الألباني في «**إرواء الغليل**» (٢٥٦١).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦)، من حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَقَدْ كفَرَ» يَعْنِي: كُفْرًا عَمَلِيًّا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ، وَهَذَا لَفْظُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كفَرَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ وَكَفَرَ**».

إِذَنِ؛ اللهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- لَا بُدَّ أَنْ تُخْلَصَ الْعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ.

وَ«**مَلْعُونٌ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**»، فَمَنْ تَقَرَّبَ بِالذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَهُوَ مَلْعُونٌ بِلَعْنَةِ اللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالْمُؤْمِنِينَ أَجْمَعِينَ؛ فَهَذَا لَفْظُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ: «**مَلْعُونٌ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ**»(١)، وَهِيَ: الْعَلَامَاتُ الْهَادِيَةُ الَّتِي تُنْصَبُ عَلَىٰ الطُّرُقِ؛ مِنْ أَجْلِ الدَّلَالَةِ، أَوْ تُجْعَلُ حُدُودًا فَارِقَةً بَيْنَ مُمْتَلَكَاتِ الْخَلْقِ، فَمَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ فَهُوَ مَلْعُونٌ، وَاللَّعْنُ: هُوَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ، وَهُوَ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ طَرْدٌ وَإِبْعَادٌ مِنَ الرَّحْمَةِ.

«**مَلْعُونٌ مَنْ أَحْدَثَ فِي الْمَدِينَةِ حَدَثًا**» أَيْ: فِي مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

«**وَمَلْعُونٌ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا**»، فَمَنْ أَعَانَ عَلَىٰ الْإِحْدَاثِ -وَهُوَ الِابْتِدَاعُ-؛ فَهُوَ مَلْعُونٌ بِلَعْنَةِ اللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦٧، رقم ١٨٧٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أَبَاهُ، مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أُمَّهُ، مَلْعُونٌ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الْأَرْضِ، مَلْعُونٌ مَنْ كَمَهَ أَعْمَىٰ عَنْ طَرِيقٍ، مَلْعُونٌ مَنْ وَقَعَ عَلَىٰ بَهِيمَةٍ، مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ»، وحسنه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص٢٠٣)، وله شاهد عند مسلم (١٩٧٨)، من حديث: عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، ولفظه: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ**».

(٢) يشير -حفظه الله- إلىٰ حديث عَلِيٍّ رضي الله عنه، قال: قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَىٰ ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَىٰ مُحْدِثًا،**
=

لَا يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-، الْغَايَةُ مِنَ الْخَلْقِ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ النَّاسَ، وَخَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْجِنَّ، وَخَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَخَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَالَّتِي لِأَجْلِهَا تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، وَتُتَطَايَرُ الصُّحُفُ، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ مِنْ أَمَامَ، وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، الْغَايَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ: هِيَ إِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ، وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

هَذَا التَّوْحِيدُ الَّذِي هُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدًا آخَرَ، وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْمُلْكِ، وَإِفْرَادُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالتَّدْبِيرِ، وَإِفْرَادُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، فَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْمَالِكُ، وَالْمُدَبِّرُ، وَالرَّزَّاقُ الْعَظِيمُ، لَمْ يُشَارِكْهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فِي خَلْقِهِ أَحَدٌ، وَلَا يُشَارِكُهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- فِي رِزْقِ عِبَادِهِ أَحَدٌ، بَلْ هُوَ الْخَلَّاقُ، وَهُوَ الرَّزَّاقُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْمُلْكِ، وَهُوَ صَاحِبُ التَّدْبِيرِ.

هَذَا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدًا آخَرَ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ كُلَّهَا، للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صِفَاتُ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ كُلُّهَا، فَمَا مِنْ صِفَةِ كَمَالٍ وَلَا صِفَةِ جَلَالٍ إِلَّا وَهِيَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثَابِتَةٌ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِجْمَالِ، وَعَلَىٰ سَبِيلِ التَّفْصِيلِ.

=

فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا،...» الحديث.

أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠).

نُثْبِتُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَنَنْفِي عَنِ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَعِنْدَمَا نَنْفِي عَنِ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- صِفَةً مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ؛ فَلَيْسَ ذَلِكَ مَقْصُودًا إِلَّا مِنْ أَجْلِ إِثْبَاتِ كَمَالِ ضِدِّهِ، فَأَنْتَ إِذَا نَفَيْتَ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صِفَةَ الظُّلْمِ؛ فَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِكَمَالِ صِفَةِ الْعَدْلِ فِيهِ؛ لِأَنَّ مُجَرَّدَ نَفْيِ الصِّفَةِ عَنِ الْمَوْصُوفِ لَا يُعَدُّ كَمَالًا، فَالْحَائِطُ لَا يَظْلِمُ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَىٰ الظُّلْمِ، وَالذَّلِيلُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَظْلِمَ؛ لِذُلِّهِ، وَأَمَّا الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ لِعَدْلِهِ وَلِكَمَالِ عَدْلِهِ؛ فَهَذَا هُوَ الْحَرِيُّ بِالْمَدْحِ حَقًّا.

فَإِذَا مَا نَفَيْنَا عَنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ؛ فَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِكَمَالِ ثُبُوتِ ضِدِّ تِلْكَ الصِّفَةِ عِنْدَ رَبِّنَا جَلَّ وَعَلَا.

نُثْبِتُ للهِ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ.

إِذَنْ؛ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ، كَمَا قَرَّرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

مَا خَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ إِلَّا لِعِبَادَتِهِ.

إِذَنْ؛ إِذَا دَخَلَ الْإِنْسَانُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَبَدَهِيٌّ.. بَلْ مِمَّا يَتَطَلَّبُهُ الْعَقْلُ بِغَيْرِ نَظَرٍ، لَا بِقَلِيلِ نَظَرٍ، وَلَا بِإِعْمَالِ يَسِيرِ فِكْرٍ، وَإِنَّمَا بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ يَعْلَمُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ إِذَا

دَخَلَ الْإِسْلَامَ؛ فَإِنَّهُ يُحَقِّقُ الْغَايَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خُلِقَ، وَهَذِهِ الْغَايَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ الْإِنْسَانُ: هِيَ عِبَادَةُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.(*).

هَذِهِ الْأُصُولُ الْعَظِيمَةُ مِنْ دِينَ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ عَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَعْرِفَهَا، وَأَنْ يَعْرِفَ حُدُودَهَا وَحَقِيقَتَهَا وَشُرُوطَ صِحَّتِهَا، وَأَنْ يُلِمَّ بِأَرْكَانِهَا، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْبُعْدِ عَنْ نَوَاقِضِهَا وَمَا يُبْطِلُهَا، وَإِلَّا فَهُوَ سَائِرٌ عَلَىٰ غَيْرِ سَبِيلٍ، وَمُجْتَهِدٌ فِي غَيْرِ تَحْصِيلٍ، وَبَاذِلُ الْجُهْدَ فِي غَيْرِ طَائِلٍ.

فَنَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا عَلَّمَنَا، وَأَنْ يَزِيدَنَا عِلْمًا.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مَوْعِظَةٍ بِعُنْوَان: «إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَىٰ: «الْعِبَادَةُ.. مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتُهَا وَأَرْكَانُهَا وَشُرُوطُ صِحَّتِهَا» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ)، الْخَمِيسُ ٤ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٨هـ| ٢٧-٧-٢٠١٧م.

الْفِهْرِسُ

مُقَدِّمَةٌ ٣
الْغَايَةُ مِنْ خَلْقِ الْخَلْقِ: تَوْحِيدُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ........................ ٤
مَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ فِي اللُّغَةِ وَالشَّرْعِ........................ ٧
قَوَاعِدُ الْعِبَادَةِ.. ٢٨
مَفْهُومُ الْعِبَادَةِ وَحَقِيقَتُهَا فِي الْإِسْلَامِ........................ ٣٢
أَرْكَانُ الْعِبَادَةِ.. ٤٤
أَقْسَامُ الضُّلَّالِ فِي تَحْقِيقِ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ........................ ٦٠
شُرُوطُ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ.. ٦٢
مَنْزِلَةُ الْعِبَادَةِ فِي الْإِسْلَامِ وَثَمَرَتُهَا........................ ٧٤
مُبْطِلَاتُ الْعِبَادَةِ.. ٨٢
إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ.. ٨٥